جامعة الأزهر

حولية كلية اللغة العربية

بنين بجرجا

تعريفات البلاغة العربية

دراسة نقدية

✍ الدكتور

حفظي حافظ اشتية

جامعة البلقاء/ كلية السلط للعلوم الإنسانية

✍ الدكتور

حامد علي أبو صعيليك

جامعة البلقاء/ كلية الأميرة عالية .

العدد الثامن عشر

للعام ١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م

الجزء الأول

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠١٤م

الترقيم الدولى : ٩٠٥٠ / ب ٢٣٥٦ ISSN

ملخص البحث

– تتبع البحث التعريفات التي وضعها العلماء للبلاغة العربية، وعلومها التي تفرّعت عنها، منذ مؤلفاتها الأولى إلى شروح التلخيص، وعرضها للدرس النقدي الشامل.

– تبيّن أنّ البلاغيين كانوا يدركون أهمية البلاغة ، وخطورة وظيفتها، وضرورة أن يكون لها تعريف واضح يحدّد مفهومها، ويحقق المطلوب منها .

– غلب على علماء البلاغة أنّ اللاحقين منهم كانوا ينتقدون السابقين، وقلّما تراكمت الجهود للوصول إلى تعريفات للبلاغة وعلومها أكثر دقّة وصدقاً ووضوحاً.

– تراوحت تعريفات البلاغة بين أقوال انفعالية عامة أول أمرها، وحدود منطقية صارمة آخر عهدها. ولعلّ المنهج الأمثل والأفيد يكون في اتخاذ منزلة بين المنزلتين.

تمهيد وتحديد

غاية هذا البحث الوقوف على التعريفات التي أوردها العلماء العرب القدماء للبلاغة العربية، والفصاحة التي تعدّ مرادفة لها أو جزءاً منها ، لملاحظة مدى اتفاقهم أو اختلافهم بشأنها، وبشأن فروعها التي انبثقت عنها، وهي المعاني والبيان والبديع .

ويتوقع عند منتهى النظر في هذا البحث أن نتوصل إلى إجابات عن الأسئلة التالية :

* هل أدرك العلماء أهمية البلاغة التي يبحثون أمرها ؟

* هل حدّدوا لها وظائفها ليضعوا لها مناهجها التي تتفق مع تلك الوظائف؟

* هل أدركوا ضرورة أن يكون لها تعريف أو تعريفات محدّدة تضبط مناهج بحثهم، وتوجه مسارهم نحو تحقيق أهدافهم ؟

* هل تراكمت جهودهم، وأفاد اللاحقون من السابقين للوصول إلى جوامع مشتركة تخدم وظائف محدّدة، وتحقق أهدافاً متفقاً عليها ، أم أنهم اختلفوا، ومال بعضهم إلى نقد، أو نقض بعضهم الآخر ؟

* إلى أي حدّ كان كل منهم مقتنعاً برأيه، معتدّاً بكتابه، مقنعاً في نقد، أو نقض جهد غيره ؟

* ماذا كان حصاد هذه الجهود ؟ وهل وصلت بنا إلى تعريف، أو تعريفات بلاغية غير خلافية ، واضحة الرؤية : بها نحكم على الكلام فتتفق الاحكام ، و بها ترسم الطريق البيّنة لإنتاج الفنّ الأدبي ؟

وفي هذا السبيل سيكون هذا البحث في وقفتين رئيستين :

الأولى : تتناول العهد الأول الذي شهد البذور البلاغية الأولى في الكتب اللغوية والأدبية والتفسيرية، حيث كانت العناصر البلاغية غضة معتلقة بالعلوم الأخرى ، ولمّا تعرف بعد البحث البلاغي الخاصّ الخالص. وسيتم الوقوف العجول

على ما يتعلق بموضوع هذا البحث في بعض الكتب اللغوية والتفسيرية العامة: كـ الكتاب لسيبويه ، ومعاني القرآن للفراء، والصاحبي لابن فارس، ومعاني القرآن للأخفش، والخصائص لابن جني، مع إشارة عجلى إلى مجاز القرآن لأبي عبيدة باعتباره كتاباً بلاغياً مشكلاً ، ووقفة متأنية مع كتاب البيان والتبيين باعتباره طلع البلاغة العربية ، ومطلع فجرها .

أما الوقفة الثانية :وعليها المعوّل الأكبر في الإجابة عن أسئلة هذا البحث ، فستكون للكتب البلاغية المتخصصة بالشأن البلاغي، وتمّ اختيار مجموعة منها يؤمل أن تمثل عينة صادقة كاشفة للبحث البلاغي عبر مساره، روعي فيها أن تشمل أهم الأعصار والأمصار ، ومختلف المناهج البلاغية، والفرق الإسلامية، ليتشكل من مجموع أنظارها صورة شاملة للبحث البلاغي العربي.

وسيكون المبتدأ بكتاب البديع لعبد الله بن المعتز أواخر القرن الثالث الهجري، والمنتهى عند شروح التلخيص التي جمدت عليها شمس البلاغة ، ويكون آخر المعتمد على آرائهم المغربيّ المتوفى في القرن الحادي عشر الهجري، وتكون المدّة الزمنية التي يمتد إليها البحث قريباً من عشرة قرون، تضم بين مبتداها والمنتهى، آراء فحول أعلام البلاغة كـ: قدامة بن جعفر، وابن وهب الكاتب، والرماني، والخطابي، والعسكري، والباقلاني، والقاضي عبدالجبار ، وابن سنان الخفاجي، وابن رشيق القيرواني ، وعبدالقاهر الجرجاني، والزمخشري، والرازي، والسكاكي، وابن الأثير، والقزويني، والعلوي، والسبكي، والمغربي.

ولعل هذا يكشف بوضوح عن امتداد البحث زماناً ومكاناً، فلا بدّ له من أن يلتقط الأفكار التي تعنيه من هذه الكتب، وغيرها، وهي أفكار منثورة في طوايا هذه الكتب، التي لم يعهد كثير منها تنظيماً علمياً صارماً، وتبويباً حازماً يضع كل عنصر في بابه.ويزيد الأمر صعوبة أنه حتى في الكتب المنظمة المبوبة في ظاهرها ، كانت

المصطلحات المعنية في هذا البحث تتسلل إلى كثير من أبوابها فكان لا بد من تصفح الكتاب كلّه، للوقوف بأناة على المعنيّ منها في مكانه، والتقاط ما تناثر منها في الثنايا .

وكان لا بدّ أيضاً من الوقوف على أهم المؤلفات الحديثة في التأريخ البلاغي، والمناهج البلاغية ، والدراسات الأسلوبية، والدعوات إلى التجديد البلاغي، للإفادة مما ورد فيها من علائق البحث[١] ، بالإضافة إلى المقدمات التي وضعها المحققون للكتب البلاغية التراثية التي سبق ذكرها.

أما الدكتور أحمد مطلوب، فقد أفاد البحث من العديد من كتبه البلاغية، ولاسيما كتابه الضخم عظيم الفائدة: معجم المصطلحات البلاغية[٢]، الذي افترع منه كتابين هما: فنون بلاغية [٣]، وأساليب بلاغية[٤] أودعهما المصطلحات التي تعني بحثنا هذا، ثم جمعها جميعاً في كتاب خاص هو :مصطلحات بلاغية[٥]. وكان هدفه منصباً على تأصيل هذه المصطلحات، وتتبع تطورها، ووقف جل جهده على هذا ، وكان صادقاً واضحاً إذ قال :

(ولم نرد أن ننقد التعريفات، ونفند رأي هذا أو ذاك، لأنه يخرجنا عن هدفنا، ولأنه يفتح سبيل القول ويدعو إلى الخوض في أغراض شتى)[٦].وبقوله هذا يتضح أن هذا البحث يلتقي مع جهده في المورد، لكنه يفترق عنه في المصادر والأغراض. فهذا البحث يعود إلى الموارد نفسها التي أمّها أحمد مطلوب، ويزيد عليها، ويتوسع فيها، ويلقط ما يعنيه منها ، ثم يتناولها بالدرس ، والنقد، والتحليل، والمقاربة، والمقارنة، ليصدر عن ريّ، ويصل إلى حكم نقدي مرضيّ.

ويتوسل البحث بمنهج ائتلافي:تاريخي، ووصفي، ونقدي، وتحليلي، ليتوصل إلى أغراضه التي نهض لها ، وسعى للوصول إليها .

أهمية البلاغة

بوضوح تام أدرك العلماء أهمية البلاغة العربية ، والدواعي القويّة للتأليف فيها، فبدت عالية القدر، رفيعة الشأن في ملحوظاتهم ومؤلفاتهم منذ بدأت، ذلك أنها ارتبطت بقضية الإعجاز القرآني، وهي من أكثر القضايا أهمية وقدسيّة ، انشغل بها الفكر العربي منذ بدء نزول القرآن إلى يوم الناس هذا .

كما أنها اعتلقت بنقد النتاج الأدبي، والحكم عليه، في أمة كان أعظم ما تفخر به تفوّقها في فنّ القول شعراً ونثراً، وجاء القرآن تحدياً أبدياً لمصدر هذا الفخر والتفوق .

ولهذا، فإننا لا نكاد نجد مقدّمة مؤلّف بلاغي تخلو من الإشادة بالبلاغة وأهميتها، والإشارة إلى وظائفها وفوائدها :

فمجاز القرآن الذي أوحى عنوانه لبعض مؤرخي البلاغة أنه أول كتاب بلاغي، ألّفه أبو عبيدة معمر بن المثنّى(٢١٠هـ) في أساليب القرآن، كان قدح زناد لسؤال عن بعض هذه الأساليب والحكم بصحتها.(٧)

وكتاب البيان والتبيين(٨) ألّفه الجاحظ(٢٥٥هـ) مؤسس البيان عند بعضهم، ليكون موسوعة ضخمة لأساليب البلاغة، ورسم مناهجها وسننها ، وتمييز البلاغة من العيّ، وجعل البيان، وهو رديف البلاغة ردحاً من الزمن، عنواناً وإلماعاً لِلُّباب مضمونه.

وابن المعتز(٢٩٦هـ) صاحب البديع(٩) أول كتاب متخصص في الشأن البلاغي وفق الرأي الراجح، جعل فيه وظيفة البلاغة متساوقة مع غاية نقدية عملية، وجواباً لإشكالية ما عرف بالبديع في عصره، فألف الكتاب لإثبات قدم عهد هذا البديع، ووجوده في القرآن والأحاديث، وكلام الصحابة والأعراب وأشعار المتقدمين، وأنه ليس بدعاً عند المحدثين، وإنما شاع بينهم، وفشا، فكان منهم إساءة وإحسان.

وابن طباطبا(٣٢٢هـ)[١٠] اعتمد كثيراً من العناصر البلاغية عياراً للشعر في كتابه الذي استضاء به لأحكامه النقدية .

وقدامة بن جعفر(٣٣٧هـ) [١١]جعل كتابه في نقد الشعر: جيده ورديئه، وهذا القسم النقدي العملي الذي عنى قدامة هو الملتبس بالبلاغة التي تآخت والنقد عهداً بعد عهد.

والمرزباني(٣٨٤هـ)[١٢] الذي نصب كتابه لمآخذ العلماء وعلى الشعراء، ضمنه بين دفتيه أنظاراً نقدية حوت الكثير من العناصر البلاغية طيّاً ونشراً.والرماني(٣٨٦هـ) والخطابي(٣٨٨هـ) جعلا البلاغة مجازاً للإعجاز القرآني في رسالتيهما.

وكذا حال الآمدي(٣٧٠هـ)[١٣] في الموازنة، والجرجاني(٣٩٢هـ)[١٤]، في الوساطة كانت البلاغة فيهما العنصر الرئيس في نقد الشعر، والحكم للشاعر أو عليه .

ودأب كثير من المؤلفين على النصّ صراحة على أهمية البلاغة.يقول العسكري(٣٩٥هـ)[١٥]:

(إنّ أحقّ العلوم بالتعلم ، وأولاها بالتحفظ، بعد المعرفة بالله جلّ ثناؤه علم البلاغة، ومعرفة الفصاحة، الذي به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى ..... وقد علمنا أنّ الانسان إذا أغفل علم البلاغة، وأخلّ بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصّه الله به من حسن التأليف، وبراعة التركيب) .

ويجعل علم البلاغة ضرورة لازمة للفقيه والقارئ والمتكلّم ، بل يربأ بالعربي الصليب، والقرشي الصريح أن يتساوى في البلاغة، وإدراك الإعجاز مع أبناء الأمم الأخرى .[١٦]

ويرى البلاغة آلة الحكم على الكلام ومراتبه ، والعون على إنتاج الأدب العالي، والوسيلة الدقيقة في حسن الاختيار [١٧] .

والباقلاني(٤٠٣هـ) يرى أن أهم العلوم للناس ما كان (على صدق نبيهم ﷺ برهاناً، ولمعجزته ثبتاً وحجة).[١٨]

ويرى البلاغة المرقاة لمعرفة إعجاز القرآن ، سواء أكان الإعجاز بفصاحة القرآن، أو بصرف الناس عنه:

(أما العلوم الشرعية فالمعجز الدال على نبوة محمد ﷺ هو القرآن، والخلاف الظاهر فيما به كان معجزاً على قولين أحدهما : أنه خرق العادة بفصاحته ... وليس للذاهب إلى هذا المذهب مندوحة عن بيان ما الفصاحة التي وقع التزايد فيها موقعاً خرج عن مقدور البشر ... والقول الثاني إن وجه الإعجاز في صرف العرب عن المعارضة مع أن فصاحة القرآن كانت في مقدروهم لولا الصرف. وأمر القائل بهذا يجري مجرى الأول في الحاجة إلى تحقق الفصاحة ما هي ليقطع على أنها كانت في مقدورهم من جنس فصاحتهم ...).[١٩]

وابن سنان الخفاجي(٤٦٦هـ)يرى البلاغة درّة العلوم الأدبية والشرعية : (أما العلوم الأدبية فالأمر في تأثير هذا العلم فيها واضح، لأن الزبدة فيها والنكتة نظم الكلام على اختلاف تأليفه، ونقده، ومعرفة ما يختار منه مما يكره، وكلا الأمرين متعلق بالفصاحة ، بل هو مقصور على المعرفة بها).[٢٠]

وعبد القاهر الجرجاني(٤٧١هـ) شيخ البلاغة الأكبر تغلبه الحماسة فيعلّق:(إنك لا ترى علماً أرسخ أصلاً وأبسق فرعاً، وأحلى جنى، وأعذب ورداً، وأكرم نتاجاً، وأنور سراجاً من علم البيان) .[٢١]

ويبيّن أهميته ويحددّ وظيفته، فـ (لولاه لم ترَ لساناً يحوك الوشي، ويصوغ الحلي، ويلفظ الدرّ، وينفث السحر، ويقري الشهد، ويريك بدائع من الزهر، ويجنيك الحلو اليانع من الثمر...) .[٢٢]

والزمخشري (٥٣٨هـ) لا يرى الجدارة بتعاطي التفسير محصورة بـ(رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن وهما علم المعاني والبيان) [٢٣] .

ونرى أصداء كلام الزمخشري في تنبيه السكّاكي على أهمية المعاني والبيان وخاصة للتفسير، لأن (الواقف على تمام مراد الحكيم تعالى وتقدس من كلامه مفتقر إلى هذين العلمين كل الافتقار، فالويل كل الويل لمن تعاطى التفسير وهو فيهما راجل).[٢٤]

وابن الأثير(٦٣٧هـ)، يرى (أن هذا الفن هو أشرف الفضائل، وأعلاها درجة، ولولا ذلك لما فخر به رسول الله ﷺ في عدّة مواقف ....) . [٢٥]
والقزويني(٧٣٩هـ) يرى البلاغة وتوابعها من أجلّ العلوم قدراً، وأدقها سرّاً. ويقرن جلال أهمية علم البلاغة، بخطورة وظيفته، (إذ به تعرف دقائق العربية وأسرارها، وتكشف عن وجوه الإعجاز في النظم أستارها). [٢٦]

طالما أن البلاغة بهذه الأهمية البالغة ، وأن وظائفها بهذه الخطورة الظاهرة، فإنّ المتوقع أن تُحدّ لها حدود تكون علامات واضحة لا لبس فيها ، ولا خلاف بشأنها لتكون الأحكام النقدية الصادرة على الكلام قطعية لا طعن بها، ولا رجعة عنها.

وقد أشار بعضهم صراحة إلى ضرورة صرامة هذه الحدود وحصانتها: (والحدود لا يحسن فيها التأوّل، وإقامة المعاذير، وغرابة ألفاظ تدلّ على المقصود؛أنها مبنيّة على الكشف الواضح، موضوعة للبيان الظاهر، والغرض بها السلامة من الغامض، فكيف يوقع في غامض مثله؟).[٢٧]

فهل وجدت هذه الحدود؟ وهل اتفقوا عليها وأجمعوا على اعتمادها مرجعاً موحداً؟

أمّا في البدايات فإن هذه الحدود لم توجد، وهذا أمر طبيعي؛فقد نشأت البلاغة أفكاراً متناثرة في مهاد التآليف اللغوية والأدبية والتفسيرية:نجدها في كتاب سيبويه(١٨٠هـ) الذي لم يقتصر النحو بين يديه على تتبع حركات أواخر الكلمات، بل تجاوز ذلك إلى النظر في التراكيب، فظهرت مصطلحات التقديم والتأخير، والحذف، والإيجاز، والإضمار، والاتساع....، لكنه لم يورد هذه العناصر قاصداً تأسيس علم البلاغة، بل لأن نظرته الصائبة للتحليل اللغوي استدعت ذلك.[٢٨]

وعلى نهج سيبويه سار غيره من النحاة مثل الفراء(٢٠٧هـ) في معاني القرآن[٢٩]، والأخفش(٢١٥هـ) في معاني القرآن[٣٠]، بل إن المبرّد(٢٨٥هـ) وضع كتاباً خاصاً بالبلاغة[٣١]، وكذلك فعل ثعلب(٢٩١هـ)[٣٢]. وابن جني(٣٩٢هـ) ملك ناصية الكثير من الدقائق البلاغية، وراد دروبها في الخصائص[٣٣]. وظهرت عناصر بلاغية أخرى مهمة في تأويل مشكل القرآن، وأدب الكاتب لابن قتيبة(٢٧٦هـ)[٣٤].والصاحبي لابن فارس(٣٩٥هـ) [٣٥]لعلّه استوحى بعضها من بعض مؤلفات ابن قتيبة.

لكن البلاغة في هذه الكتب لم تعرف تعريفاً واضحاً، ومصطلحاتها لم تشهد تحديداً حازماً، وإنما كانت تحوم قريباً من دلالاتها الوضعية المبدئية.

وبين يدي الجاحظ، وفي أكناف كتابه الضخم البيان والتبين، نشهد ميلاد ما يشبه الفجر الصادق للبلاغة العربية، فقد تناثرت مصطلحاتها، وتكاثرت تعريفاتها، إلى حدّ يستعصي فيه الاستقصاء في هذا المقام.لكن من الواضح أنّ الجاحظ، وهو زعيم البيان، واجه صعوبة في صناعة قالب يصب فيه الكلام، فيكون معياراً صادقاً تنماز فيه المستويات، وتطلق بموجبه الأحكام الصائبة النافذة، ولذلك راح يحشد

طائفة كبيرة من الأقوال للبلغاء من خلفاء، وأمراء، وكتّاب، وشعراء، ونبهاء. ولم يكتف بالعرب منهم بل طاف بأقوال أدباء وحكماء من أمم أخرى: هندية، وفارسية، ويونانية.

وكانت النتيجة أن وضعنا أمام لوحة فسيفسائية تضمّ مزقاً من كل صنف ولون .

يلحظ المستقرئ المتبصّر أن ما أورده الجاحظ يضم معظم العناصر المعنية في العملية الإبداعية، وشكل كلامه البنية الأساسية للبلاغة العربية: تعريفاتٍ ومصطلحاتٍ .

فقد وقف على الألفاظ وتناولها حسناً وفصاحة، والتفت إلى سلامة نطق الأصوات ، وعدّ ذلك تمام آلة البيان[٣٦]، واهتم بالبيان وجعل إفهام المعنى هو غاية البيان النهائية (والدلالة الظاهرة على المعنى الخفيّ هو البيان الذي سمعت الله عزّ وجلّ يمدحه، ويدعو إليه).[٣٧]

والبيان عنده (اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك حجاب الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته ... لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام، وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع)[٣٨]. وهذا الكلام موافق لرأي العتابي الذي حصر البلاغة في الفهم والإفهام ، لكن الجاحظ لا يترك هذا القول مرسلاً، فبعد أن يقف مطوّلاً على طوائف من الكلام لم يمنع فشو اللحن فيها من إدراك مراد أصحابها، عاد ليحترز ويقيّد قائلاً :(فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل جعل الفصاحة واللكنة والخطأ والصواب والإبانة والملحون والمعرب كله سواءً، وكلّه بياناً.وكيف يكون ذلك كله بياناً؟[٣٩]

ويُحكم قول العتابيّ بتوضيح من عنده يقيّد المفهوم المطلق، ويخصص الحكم العام، قائلاً:

(وإنما عنى العتابيّ إفهامك العرب حاجتك على مجاري كلام العرب الفصحاء) [٤٠].

وكان قد وسّع مفهوم البيان فجعل الدلالة على المعاني في خمسة أشياء لفظية وغير لفظية:

اللفظ والإشارة والعقد والخط والنصبة [٤١] .

وأورد عشرات التعريفات للبلاغة [٤٢]تدور حول الإيجاز، أو الفصل والوصل، أو حسن الاقتضاب عند البداهة.ويدور بعض حديثه عن حال المتكلّم وتصيّد لحظة إبداعه ، وسياق الحال وطبيعة المخاطبين.[٤٣] ويتحدث عن الإشارة المصاحبة للكلام، ويعرض عناصر الصحيفة الهندية[٤٤] بما فيها من مراعاة الأحوال النفسية، ومراعاة مقامات المخاطبين.ويبدي عناية فائقة بصحيفة بشر بن المعتمر[٤٥] بما حوته، من توصيف منازل الإبداع، وتوفيق أقدار المعاني مع أقدار المستمعين ، وظروف الخطاب، وتطبيق المقولة الشهيرة: لكل مقام مقال .

وكان الجاحظ في عرضه حيادياً لم يظهر موقفه النقدي الشخصي إلا في حالات محدّدة جداً ، منها تعقيبه على تعريف العتابي، ومنها إيراده قول الإمام إبراهيم بن محمد :

(يكفي من حظ البلاغة أن لا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق، ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع) فعلّق الجاحظ : (أما أنا فأستحسن هذا القول جداً) [٤٦].

ويستلطف تعريفاً للبيان نسبه إلى جعفر بن يحيى : (أن يكون الاسم محيطاً بمعناك، ويجلي عن مغزاك، وتُخرجه عن الشركة، ولا تستعين عليه بالفكرة ، والذي

لا بُدّ له منه أن يكون سليماً من التكلّف، بعيداً عن الصنعة، بريئاً من التعقيد، غنياً عن التأويل) .[٤٧]

وهكذا لا نجد عند الجاحظ تعريفاً واحداً واضحاً للبلاغة، أو البيان، أو أي من فروع البلاغة الأخرى، لكنّ ما أورده دار طويلاً في التآليف البلاغية اللاحقة، واعتُمد عليه لما ورد فيه من علائق البلاغة، وأوصافها، وشروطها، وأجزاء من تعاريفها، بل إنّ التعريف الأخير الذي قرّت عليه البلاغة كان قدح زناده، وغاية مراده في صحيفة بشر التي عرضها الجاحظ تامّة توقيراً لها وإقراراً بما جاء فيها.

بل يبدو في بعض حديث الجاحظ غرساً صالحاً لفكرة النظم التي تسنمت قمة الدراسات البلاغية ، والتحمت فيها البلاغة والفصاحة:يقول في أحد المواضع:(وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه قد أُفرغ إفراغاً واحداً وسبك سبكاً واحداً ، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان).[٤٨]

وأما المصطلحات البلاغية الرئيسة : البلاغة والفصاحة والمعاني والبيان والبديع، فقد وردت في ثنايا كتاب الجاحظ .فالبيان عنوان كتابه، وهو يبدو تارة أعمّ من البلاغة، وتارة فيه ملامح الفصاحة كما استقر أمرها متأخراً، ويورد له تعريفات ، أو يصف له مكملات وآلات[٤٩]:

فلفظة البلاغة وردت كثيراً تعريفاتٍ، ونعوتاً، وشروطاً.وللفصاحة وقفات لشروطها يصرّح به أحياناً أخرى.[٥٠]

والبديع [٥١]ورد بمفهومه النقدي الأوليّ الذي يعنيه ما ظُنّ أنه مستجدّ مبتدع في أشعار المولدين ، وهو المفهوم ذاته الذي بنى عليه ابن المعتز- فيما بعد – كتابه .

ولفظة المعاني[٥٢] ترد في بعض المواضع، ويتراوح المفهوم فيها بين الدلالة الوضعية الأولى وبين دلالات أخر يرشح منها إرهاصات بما رسا عليه المفهوم الاصطلاحي واستقرّ.

وفي المجمل ، فإنّ المصطلحات عند الجاحظ ما زالت فطيرة، غير منمازة، وذلك أمر طبيعي في هذا العهد المبكر. وكان المتوقع أن ما نثره الجاحظ في كتابه هو لبنات صالحات انتظرت اللاحقين من أعلام البلاغة ، أصحاب المؤلفات البلاغية المتخصصّة أواخر القرن الثالث الهجري و أوائل القرن الرابع الهجري ومن بعدهم، لالتقاطها ، وإقامة أساسات البناء البلاغي المكين ، بحدود واضحة، ومصطلحات بينة، فماذا حصل ؟

من يستعرض الكتب البلاغية الشهيرة منذ بديع ابن المعتز، حتى بعض شروح التلخيص في القرن الحادي عشر الهجري، تستوقفه أمور:

– إنّ معظم مؤلفي هذه الكتب يشيرون تصريحاً أو تلميحاً إلى وجود الصعوبة والاضطراب والخلط في الحدود والمصطلحات التي تعني هذا البحث ، أو ما له علاقة بها .

– إنهم يلقون اللوم على سابقيهم بسبب هذا الاضطراب والتخبط، ويلاحقونهم بالنقد حيناً، والنقض أحايين .

– كلّ منهم يصوّر مؤلّفه بأنه حسم الأمر، وحلّ المسألة ، وأزال الإشكال.

– إنّ الخلاف استمرّ بينهم من أول الأمر إلى آخره .

ويعرض البحث تالياّ طائفة من أقوال مشاهيرهم :

– ابن المعتز: ينتقد النقاد وعامّة الناس بأنهم مخطئون في ظنهم بأن البديع مستحدث، ويبين أن غرضه في كتابه(تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدّمين إلى شيء من أبواب البديع).[٥٣]

– ابن وهب الكاتب(٣٣٥هـ): يجعل علّة تأليف كتابه ما اعترى كتاب الجاحظ من نقائص، عدّدها من ألّف ابن وهب كتابه بناءً على طلبه، واستكثر على كتاب الجاحظ اسمه المنسوب إليه: (أما بعد؛ فإنك كنت ذكرت لي وقوفك على كتاب الجاحظ الذي سمّاه كتاب البيان والتبيين ، وأنك وجدته إنما ذكر فيه أخباراً منتخلة، وخطباً منتخبة، ولم يأت بوظائف البيان، ولا أتى على أقسامه في هذا اللسان ، فكان عندك ما وقفت عليه غير مستحق لهذا الاسم الذي نُسب إليه).[٥٤]

وبيّن عدم وجود تعريف للبلاغة قبله، وانتقد ما ذكره الجاحظ في ذلك :

(وقد ذكر الناس البلاغة ، ووصفوها بأوصاف لم تشتمل على حدّها. وذكر الجاحظ كثيراً مما وُصفت به، وكل وصف منها يقصر عن الإحاطة بحدّها).[٥٥]

– قدامة بن جعفر : وجد الناس – كما قال – غافلين عن أهم قسم في علم الشعر، فيضع كتابه واصفاً هذا الحال، ليزيل هذا الإشكال :

(ولم أجد أحداً وضع في نقد الشعر، وتخليص جيده من رديئه كتاباً، وكان الكلام عندي في هذا القسم أولى ....).[٥٦] ويصف تخبط الناس في هذا الشأن :

(فأما علم جيد الشعر ورديئه، فإن الناس يتخبطون في ذلك منذ تفقهوا في هذا العلم فقليلاً ما صيبون . ولما وجدت الأمر على ذلك...وأن الناس قد قصّروا في وضع كتب فيه، رأيت أن أتكلم في ذلك...).[٥٧]

– الخطابيّ : يصف تخبط الناس في معرفة كنه الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم ، لغياب حدود هذه البلاغة، وعجزهم عن تصوير هذا الإعجاز :

(وزعم آخرون أن إعجازه– يقصد القرآن الكريم – من جهة البلاغة، وهم الأكثر من علماء أهل النظر. وفي كيفيتها يعرض لهم الإشكال ، ويصعب عليهم منه الانفصال ... ولذلك صاروا إذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة التي اختصّ بها القرآن، الفائقة في وصفها، سائر البلاغات، وعن المعنى الذي يتميز به عن سائر

أنواع الكلام الموصوف بالبلاغة ، قالوا : إنه لا يمكننا تصويره ولا تحديده، وأحالوا على سائر أجناس الكلام الذي يقع منه التفاضل ، فتقع في نفوس العلماء به عند سماعه معرفة ذلك).(٥٨)

– العسكريّ: يستعرض أحكاماً نقدية بلاغية لبعض العلماء، ويراها غير صائبة لغياب المعيار النقدي البلاغي السليم، ثم يقول:

(فلما رأيت تخليط هؤلاء الأعلام فيما راموه من اختيار الكلام، ووقفت على موضع هذا العلم من الفضل، ومكانه من الشرف والنبل، ووجدت الحاجة إليه ماسّة، والكتب المصنفة فيه قليلة ، وكان أكبرها وأشهرها كتاب البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ...).(٥٩)

وبعد أن يثني على الكتاب ، ويستحضر بعض فوائده، يستدرك قائلاً:

(إلا أنّ الإبانة عن حدود البلاغة، وأقسام البيان والفصاحة، مبثوثة في تضاعيفه، ومنتشرة في أثنائه، فهي ضالة بين الأمثلة لا توجد إلا بالتأمل الطويل، والتصفح الكثير، فرأيت أن أعمل كتابي هذا مشتملاً على جميع ما يحتاج إليه في صنعة الكلام: نثره ونظمه).(٦٠)

وبعد أن يُنهي الباب الذي خصصه لتحديد البلاغة وبيان أوصافها، يختم مكرراً انتقاده لسابقيه ، مثنياً على كتابه، واثقاً قائلاً:

(ذكرت في هذا الباب وهو ثلاثة فصول من نعوت البلاغة، ووجوه البيان والفصاحة ما فيه كفاية، وأثبت من تفسير مشكلها على ما فيه مقنع. ولم يسبقني إلى تفسير هذه الأبواب وشرح وجوهها أحد، وإنما اقتصر من كان قبلي على ذكر تلك النعوت عارية مما هي مفتقرة إليه من إيضاح غامضها، وإنارة مظلمها، فكان المنفعة بها للعالم دون المتعلّم ....).(٦١)

ويهمس في أذن القارئ بأن في كتابه هذا مغنى عن كل ما سواه، فليلزمه، وليترك ما عداه:

(وأنت، أيّدك الله، تعتمد على ما ذكرته من ذلك، وتأتم بما شرحته منه، وتستدلّ به على ما ألفيته من جنسه إذا عثرت به، لتستغني عن جميع ما صنف في البلاغة، وسائر ما ذكر من أصناف البيان والفصاحة).(٦٢)

وعلى مشرف الكتاب الأخير يعيد التذكير بأن كتابه (قد جمع من فنون ما يحتاج إليه صُناع الكلام ما لم يجمعه كتاب أعلمه، وكل شيء استعرته من كتاب وضمنته إياه، فإني لم أُخلِه من زيادة تبين ، واختصار ألفاظ، وغير ذلك مما يزيد في قيمته، ويرفع من قدره).(٦٣)

– ابن سنان الخفاجيّ: يكرّر الخفاجي جزءاً مما ذكره ابن وهب، فينتقد سابقيه ممن وضعوا حدوداً للبلاغة هو يراها عند التحقيق – صفات –وليست حدوداً صحيحة:

(وقدّ حدّ الناس البلاغة بحدود إذا حققت كانت كالرسوم والعلائم، وليست بالحدود الصحيحة. فمن ذلك قولهم : لمحة دالة. وهذا وصف من صفاتها، فأما أن يكون حاصراً لها وحدّاً يحيط بها فليس ذلك بممكن لدخول الإشارة من غير كلام يتلفظ به تحت هذا الحدّ . وكذا قال آخر: والبلاغة معرفة الفصل والوصل؛ لأن الإنسان قد يكون عارفاً بذلك، وليس بينه وبين البلاغة سبب ولا نسب، ولا يمكنه أن يؤلف ما يختاره من تأليف غيره).(٦٤)

وفي غياب الحدود الحازمة للبلاغة والفصاحة، المائزة للجيد من غيره، يرى أنّ العارفين بالصناعة قلّة، وأنّ المدعين كثر : (لم أر أقلّ من العارفين بهذه الصناعة، والمطبوعين على فهمها ونقدها مع كثرة من يدّعي ذلك ..... وقد كنت أظن أن هذا شيء مقصور على زماننا اليوم ... حتى وجدت هذا الداء قد أعيا أبا

القاسم الحسن بن بشر الآمدي، وأبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ قبله، فعلمت أن العادة جارية ، والرزية فيه قديمة).(٦٥)

ولأجل ما مضى ظهرت بجلاء فائدة كتابه، فروّج له في ظل ازدياد النقص، وقلّة العارفين:

(ولما ذكرته رجوت الانتفاع به من هذا الكتاب، وأمّلت وقوع الفائدة به؛إذ كان النقص فيما أبنته شاملاً، والجهل به عامّاً، والعارفون به قرحة الأدهم ، بالإضافة إلى غيرهم، والنسبة إلى سواهم).(٦٦)

ويؤكد أن كتابه جمع أطراف البلاغة والقضايا العالقة بها ، (وأخذ بحظ مقنع ما يحتاج الناظر في هذا العلم إليه، فهو مفرد في بابه، غريب في غرضه)(٦٧) .

ـ الباقلاني :

(وأما الفصاحة فقد اختلفوا فيها)(٦٨) . ويستعرض آراء عديدة مختلفة في هذا الشأن .

وينقل عن الرمّانيّ(٤٧١هـ)– دون أن يسميه – أقسام البلاغة العشرة التي أوردها في رسالته : النكت في إعجاز القرآن، وبعد أن يستوفيها ، يضيف إليها أشياء من عنده، يرتدّ إلى مخالفة من نقل عنه ، قائلاً :

(قد أبنا لك أن من قدّر أن البلاغة في عشرة أوجه من الكلام ، لا يعرف من البلاغة إلا القليل، ولا يفطن منها إلا اليسير، ومن زعم أن البديع يقتصر على ما ذكرنا من قبل عنهم في الشعر إلا متطرّف) (٦٩) .

– عبد القاهر الجرجاني: رغم عفة اللسان التي يمتاز بها عبد القاهر، وإفراغه جلّ جهده في الدفاع عن قضيته دون الانشغال في افتعال الاختلاف مع الآخرين، إلا أنه قد ندت منه في بعض المواضع إشرات إلى فساد آراء بعض الناس، وأنهم في عمياء أمرهم، والمتفطن قد يلقط أنه يلمح في بعض الحالات إلى مخالفيه من المعتزلة، ولا سيما القاضي عبد الجبار(٤١٥هـ) :

يقول في شأن البلاغة والفصاحة ، وهل ترتدان إلى اللفظ أو إلى المعنى :

(وفخموا شأن اللفظ وعظموه .... حتى قال أهل النظر : إنّ المعاني لا تتزايد ، وإنما تتزايد الألفاظ، فأطلقوا كما ترى كلاماً يوهم كل من يسمعه أن المزية في حاقّ اللفظ) .[٧٠]

ويقول أيضاً : (واعلم أن هذا – أعني الفرق بين أن تكون المزية في اللفظ، وبين أن تكون في النظم – باب كثر فيه الغلط) .[٧١]

ويستدرج القارئ بأناة ورفق، لكن بصبر ودأب ليأخذ برأيه، ويدع ما سواه:

(قد أردنا أن نستأنف تقريراً، نزيد به الناس تبصيراً، أنهم في عمياء أمرهم حتى يسلكوا المسلك الذي سلكناه .... وأنهم ما لم يأخذوا أنفسهم بذلك، ولم يجردوا عنايتهم له في غرور كمن يعد نفسه الريّ من السراب اللامع) .[٧٢]

ابن الأثير:

يشير ابن الأثير إلى أن الفصاحة والبلاغة قد كثر الحديث بشأنهما، واشتد الخلاف حولهما، وصعب التفريق بينهما، فيخصص فصلاً لهذا الموضوع، يفتتحه بقوله:

(اعلم أن هذا باب متعذر على الوالج، ومسلك متوعر على الناهج، ولم يزل العلماء من قديم الوقت وحديثه يكثرون القول فيه، والبحث عنه).[٧٣]

وسريعاً يحكم بأن هذا القول الكثير، والبحث الدؤوب لم يعطِ النتيجة المرجوّة، فيقول : (ولم أجد من ذلك ما يعوّل عليه إلا القليل).[٧٤]

ويبدي حيرته، ويؤكد حكمه في موضع لاحق، فيقول: (ولما وقفت على أقوال الناس في هذا الباب ملكتني الحيرة فيها.ولم يثبت عندي ما أعول عليه).[٧٥]

وبعد أن ينهي هذا الوصف لصعوبة الأمر، وتخبط الناس فيه، يبدي الأمل بأن الحلّ بين يديه، فيقول : (ولكثرة ملابستي هذا الفنّ، ومُعاركتي إيّاه انكشف لي السّر فيه، وسأوضحه في كتابي هذا وأحقق القول فيه).(٧٦)

وكان في مقدمة كتابه قد أبدى أن كثيراً من مؤلفات علم البيان التي وضعها سابقوه، قليلة الجدى:

(وقد ألّف الناس في البيان كتباً، وجلبوا ذهباً وحطباً وما من تأليف إلا وقد تصفحت شينه وسينه، وعلمت غثّه وسمينه، فلم أجد ما ينتفع به في ذلك إلا كتاب الموازنة لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي، وكتاب سرّ الفصاحة لأبي محمد عبد الله بن سنان الخفاجي).(٧٧)

لكنه سرعان ما يهجم على كتاب الخفاجي ناقداً مزرياً عليه زيادة اهتمامه بالأصوات ، بل إنه في مواضع لاحقة ينكب عليه ناقضاً.

ثم يجمع كتاب الآمدي مع كتاب الخفاجي في نقد مشترك، قائلاً :

(على أن كلا الكتابين قد أهملا من هذا العلم أبواباً، ولربما ذكرا في بعض المواضع قشوراً وتركا لُبابا).(٧٨)

ويفرغ بعد ذلك لمدح كتابه، وتهيئة قارئه أنّ القول الفصل فيه، وأنه أضاف أشياء لم يفطن إليها غيره. ويختم مخاطباً القارئ:

(وإذا تركت الهوى قلت : إن هذا الكتاب بديع في إغرابه، وليس له صاحب في الكتب، فيقال: إنه من أخدانه، أو من أترابه).(٧٩)

الرازي(٦٠٦هـ) :

ينعى على السابقين في التأليف البلاغي تقصيرهم فيه، وتخبطهم، وفساد معتقدهم بشأنه، وشيوع الادعاء فيهم :

(مع ما لهذا العلم من الشرف الظاهر، والنور الزاهر، فالناس كانوا مقصرين في ضبط معاقده وفصوله، متخبطين في إتقان فروعه وأصوله، معتقدين فيه اعتقادات حائدة عن منهج الصواب والسّداد، ظانين أن كل من عرف أوضاع لغة من اللغات ، وقدر على استعمال بعض العبارات، فهو بالغ في تلك اللغة من البيان إلى ذرى أفلاكها ، مالك لمبادئها وغاياتها).(٨٠)

ورغم أنه يحكم بأن عبد القاهر الجرجاني هي الذي خلص الناس من الاستئناس بهذا الوسواس ، وأنه معتمد على كتابيه دلائل الاعجاز و أسرار البلاغة، ملتقط منهما معاقد فوائدهما ، إلا أنه ينتقد الجرجاني بإهمال رعاية ترتيب الفصول والأبواب، والإطناب في الكلام كل الاطناب (٨١)، ويخلص إلى مدح كتابه هو مدحاً مدوياً بأنه (لم يجد فيما تناله القوى البشرية، وتفي به المنة الإنسانية ، أحسن من إهداء مثل هذا الكتاب المشتمل على العلم الذي هو أساس العلوم الدينية) (٨٢) .

السكّاكي(٦٢٦هـ) :

يصف حاجة فاضلي أهل زمانه إلى مؤلف بلاغي جديد، وكأنهم ما وجدوا الجدوى في التآليف السابقة ، فوضع لهم مصنفه، وضمن لمتقنه الحل المأمول :

(ورأيت أذكياء أهل زماني الفاضلين ، الكاملي الفضل ، قد طال إلحاحهم عليّ في أن أصنّف لهم مختصراً ... يكون أسلوبه أقرب أسلوب من فهم كلّ ذكيّ، صنّفت هذا ، وضمِنت لمن أتقنه أن ينفتح عليه جميع المطالب العلمية ، وسميته مفتاح العلوم).(٨٣)

وفي خواتم كتابه، يصوّر قارئه بأنه ما يزال بمنأى عن إدراك الإعجاز البلاغي القرآني، ما لم يتأمل في سطور هذا الكتاب، ويستيقظ من غفلته:

(وإذ قد أفضى بنا القلم إلى هذا الحدّ من علمي المعاني والبيان ، وما أظنك يشتبه عليك ، ... أنّا ما سطرنا إلا وجل الغرض توخي إيقاظك مما أنت فيه من رقدة غباك ....) .(٨٤)

القزويني(٧٣٩هـ) :

كان مفتوناً بمفتاح السكّاكي ، مال عليه تلخيصاً وإيضاحاً، وكال له المديح، إلا أنه اعترضه بالنقد في مقدمة تلخيصه، وتخوّنه بالتعديل بل بالنقض في مواضع عديدة في التلخيص ، وفي الإيضاح أيضاً .

ففي التلخيص :

يمدح المفتاح ، ويعقّب : (ولكن كان غير مصون عن الحشو والتطويل والتعقيد، قابلاً للاختصار، مفتقراً إلى الايضاح والتجريد).[٨٥]

ولا يفارق المقام دون أن يمدح تلخيصه بالترتيب والتسهيل على طالبيه وإضافة فوائد اجتباها من كتب سابقيه .

ويصف جهده العظيم المبذول في كتاب الايضاح، وحسن خطته، وإفادته من السكّاكي وعبد القاهر الجرجاني ، وغيرهما ، ويقول : (واستخرجت زبدة ذلك كله ، وهذبتها ، ورتبتها ، حتى استقرّ كل شيء في محلّه ، وأضفت إلى ذلك ما أدّى إليه فكري، ولم أجده لغيري ، فجاء بحمد الله جامعاً لأشتات هذا العلم).[٨٦]

العلوي(٧٤٩هـ) :

ويكرّر العلوي الشكوى ذاتها التي ألفناها عند من سبقه ، فيشير إلى غياب الحدود والتعريفات والحقائق :

(أعلم أن كثيراً من الجهابذة والنظار من علماء البيان ، وأهل التحقيق فيه، ما عوّلوا على بيان تعريفه بالحدود الحاصرة، والتعريفات اللائقة ، ولا أشاروا إلى تصوير حقيقة يعرف بها من سائر العلوم الأدبية ، والعلوم الدينية ، كعلم النحو ، وعلم الأصول ، وغيرها من بين سائر العلوم ، فإنهم اعتنوا بها نهاية الاعتناء، وأتوا فيها بماهيّات تضبطها) .[٨٧]

ويستوقفه هذا الأمر، يفكر فيه ويقدّر، ويستحضر المنطق، ليقفنا أخيراً على أسباب الغفلة التي أدت إلى غياب الحدود الحاصرة لماهيّة البلاغة :

(وعلى الجملة فإن ذلك غفلة لأمرين : أما أولاً فلأن الخوض في تقاسيمه وخواصه وبيان أحكامه فرع على تصور ماهيّته؛ لأن من المحال معرفة حكم الشيء قبل فهم حقيقته.

وأما ثانياً فلأن الخوض في أسراره ودقائقه إنما هو خوض في المركبات، والخوض في معرفة ماهيّته إنما هو خوض في المفردات، ولا شك أن معرفة المفرد سابقة على معرفة المركب، ولأجل ما ذكرته لم يكن بدّ من معقولهِ ومعرفة ماهيته).(٨٨)

وما نظن أن معرفة هذا التعليل الذي أورده العلوي يفيدنا كثيراً، أو أنّ الجهل به يضرنا كثيراً، في ظل سؤال مشرع: كيف قطعت البلاغة العربية رحلتها حتى العلوي دون تعريف قاطع ؟ .

السبكي(٧٧٣هـ) :

ها قد شارفت رحلة البلاغة على النهاية ، وبدت شمسها كأن قد جمدت على شروح التلخيص، فهل ظهر لها أخيراً تعريف ، وارتُضي لها عن تصنيف ؟.

يجيب السبكي بعد أن ينتقد بقسوة بلاغيّي الشرق :

(فلم أطلع للمتأخرين منه على تصنيف محكم، تقرّ بتهذيبه العين ، ولا وقفت لهم فيه على تأليف مجمل أو مفصل أشهد صحاح معانيه فلا أطلب أثراً بعد عين).(٨٩)

و راغ على شروح الشرق بالنقد والتجريح :

(ولقد وصل إلينا من تلك البلاد على التلخيص شروح ... لا تنشرح لبعضها الصدور الضيقة ، ولا تنفتح عندها مغلقة ، ولا ينقدح فيها زناد الفكر عن مسألة محققة ، يتناولون المعنى الواحد بطرق مختلفة ، ويتناوبون المشكل والواضح على

أسلوب واحد كلهم قد ألِفه، ولا يخالف المتأخر منهم المتقدّم إلا بتغيير العبارة ...).[٩٠]

ثم فرغ إلى الإشادة بجهده، وتقريظ كتابه، الذي جعله المحصّلة النهائية لتراث البلاغة العربية :

(واعلم أنني لم أضع هذا الشرح حتى استعنت عليه بنحو ثلثمائة تصنيف ، وأنه تضمّن الخلاصة من مائة تصنيف في هذا العلم ، منها ما وقفت عليه ، ومنها ما وقفت على كلام من وقف عليه ، وقال إنه جمع بين طرفيه، وأني اختصرت فيه أكثر من خمسين مصنفاً في علم البلاغة ....).[٩١]

وعلى ذلك، فإن المتوقع أن الذي يرد كتاب السبكي سيصدر عن رِيّ ، إلا أننا وجدناه مجدّداً مردّداً ما قيل قبله :

(وقد اختلف الناس في البلاغة والفصاحة) .[٩٢]

وبعد أن يستعرض الآراء المختلفة، يقطع قائلاً: (وللناس في ذلك كلام يطول ذكره) .[٩٣]

أما تعريف البلاغة العربية ، فقد خصّص له مقعداً صادقاً صدّره بقوله :

(وللمتقدمين في البلاغة رسوم واهية) .[٩٤]

وتلك هي قولة الخفاجيّ ، وضعنا أمامها السبكي، وتركنا نتساءل :

إذن ، ماذا حصل بهذا الشأن طوال هذه القرون ؟.

الجواب عن هذا السؤال، هو الغاية التي سينهض إليها الجزء التالي من البحث، لتتبع تعريفات البلاغة ، والمصطلحات التي تفرّعت عنها، والعلوم التي افتُرعت منها، لملاحظة كيف تراكمت جهودهم اتفاقاً أو اختلافاً، وهل وصلوا بنا إلى نتائج مرضية متفق عليها ، تتناسب مع أهمية علم البلاغة، وتخدم أغراضه النقدية والإبداعية ؟.

تعريفات البلاغة في مرحلة التأليف البلاغي المتخصص

الرماني:

عرّف الرماني البلاغة بأنها (إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ) .[٩٥]

وهو بذلك ربط اللفظ والمعنى معاً، وأشار إلى الحسن، والتأثير أيضاً .

ويستوحي تعليق الجاحظ على تعريف العتابي فيؤكده مجدّداً: (وليست البلاغة إفهام المعنى؛ لأنه قد يفهم المعنى متكلمان أحدهما بليغ والآخر عييّ). ولا يراها في مجرد تحقيق اللفظ على المعنى ؛ (لأنه قد يتحقق اللفظ على المعنى وهو غثّ مستكره ، ونافر متكلّف) .[٩٦]

والبلاغة كما يرى الرماني على ثلاث طبقات : (منها ما هو في أعلى طبقة، ومنها ما هو في أدنى طبقة، ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة) .[٩٧]

وبما أنه نصب رسالته لإثبات الإعجاز القرآني بالبلاغة ، ولأنه يريد أن ينأى ببلاغة القرآن عن بلاغة البشر، جعل أعلى طبقات البلاغة في الحسن بلاغة القرآن ، وهي سرّ الإعجاز.ثم التفت إلى هذه البلاغة بالدرس والتحليل ، فجعلها عشرة أقسام أولها الايجاز وآخرها حسن البيان .[٩٨]

فبدا كأن البيان فرع من فروع البلاغة .

وجعل حسن البيان في الكلام على مراتب أيضاً، ورفع القرآن إلى المرتبة الأولى، فالقرآن كلّه وفق رأيه، في نهاية حسن البيان .[٩٩]

وعرّف البيان بأنه (الإحضار لما يظهر به تمييز الشيء من غيره بالإدراك)[١٠٠].

وعادت أفكار الجاحظ لتظهر من جديد هنا، فالبيان على أربعة أقسام : كلام وحال وإشارة وعلامة.وهذه هي ذاتها الأقسام القديمة التي ذكرها الجاحظ، لكن بألفاظ جديدة .

ولا يفوت الرمّاني أن يستدرك كما فعل الجاحظ من قبل :

(وليس كل بيان يفهم به المراد فهو حسن من قِبل أنه قد يكون على عيّ وفساد) .[١٠١]

الخطابيّ:

لم يضع الخطابيّ تعريفاً محدّداً للبلاغة، رغم أنه في أواخر رسالته يخاطب مسيلمة الكذاب ، نافياً عن كلامه المُدّعى أيّ مسحة بلاغية ، ويواجهه متسائلاً :

(يا فائل الرأي، أين ما شرطناه من حدود البلاغة) ؟[١٠٢]

ونعود نعيدُ النظر باحثين في ثنايا كلام الخطابيّ عن شروط البلاغة وحدودها ، لنجد أنه عرّف عمود البلاغة بأنه (وضع كل لفظ من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخصّ الأشكل به).[١٠٣]

أما البلاغة نفسها فهي كنه الإعجاز القرآني كما يرى أكثر أهل النظر، رغم حيرتهم في تحديدها، واعترافهم بعجزهم عن تصويرها.واكتفى الخطابيّ بتعليل الإعجاز القرآني البلاغي، بأنه (جاء بأفصح الألفاظ ، في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعاني) .[١٠٤]

فلمعت في كلام الخطابيّ فكرة الفصاحة للألفاظ، والصحة للمعاني، وربطهما معاً بالنظم.

والبلاغة عند الخطابيّ أيضاً كما هو شأنها عند الرمّاني على درجات : (ودرجاتها في البيان متباينة ، غير متساوية، فمنها البليغ الرصين الجزل، ومنها القريب السهل ... فجاءت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأمثلة حصّة).[١٠٥]

وبذلك، يبدو عند الخطابيّ كأن البيان أعمّ من البلاغة كما كان حاله عهد الجاحظ، خلافاً للرمّاني الذي جعل حسن البيان أحد أقسام البلاغة العشرة .

ابن المعتز :

كان ابن المعتز منشغلاً تماماً بالقضية التي وضع كتابه لها ، وهي إثبات أن البديع قديم لا مستحدث كما يزعم المحدثون، لذلك هجم على غرضه، ولم يضع تعريفاً للبلاغة .

بل إن البلاغة كلها عنده مطويّة في البديع ، فقد وردت عناصرها منثورة في الكتاب دون تمييز بين فروعها التي استقرّت عليه آخر أمرها .

و ورد في ثنايا بعض العناصر تعريفات أو أوصاف بلاغية عامّة، مثل :

(سئل آخر عن البلاغة ، فقال : دنوّ المأخذ، ونزع الحُجة ، وقليل من كثير)[١٠٦].

(وقال علي بن عبد الله بن عباس ، وذكرت عنده بلاغة بعض أهله : إني لأكره أن يكون مقدار علمي فاضلاً عن مقدار عقلي) .[١٠٧]

قدامة بن جعفر :

لم يعرّف البلاغة، لكنه أشار إلى كثير من عناصرها ضمن خطته التي بسطها في تمييز جيد الشعر من رديئه، وبيان عيوبه.

أما الفصاحة فقد أشار إليها في وصف نعت اللفظ : (أن يكون سمحاً ، سهل مخارج الحروف من مواضعها، عليه رونق الفصاحة)[١٠٨]. ووقف على كثير من شروطها و أوصافها .[١٠٩]

ابن وهب الكاتب :

بعد أن ينتقد الجاحظ لغياب تحديد البلاغة عنده، يقول:

(وحدُّها عندنا القول المحيط بالمعنى المقصود مع اختيار الكلام، وحسن النظام، وفصاحة اللسان).[١١٠]

وإن كان محقاً في غياب التحديد الصريح للبلاغة عند الجاحظ ، إلا أنّ هذا التعريف الذي وضعه ورد ضمناً في بعض ما اختاره الجاحظ، أو استحسنه واجتباه.

ثم إن هذا التعريف ليس بعيداً عمّا وضعه الرمّاني والخطابي قبله، فما زالت العناصر الرئيسية هي لفظ ومعنى وفصاحة ونظام .

وكأن ابن وهب قد شعر بعمومية تعريفه: فأي معنى هو المحاط به ؟ وأي كلام ينبغي أن يختار ؟، فراح يوضح :

(وإنما أضيف إلى الإحاطة بالمعنى اختيار الكلام؛ لأن العاميّ قد يحيط قوله بمعناه الذي يريد، إلا أنه بكلام مرذول من كلام أمثاله، فلا يكون موصوفاً بالبلاغة. وزدنا

فصاحة اللسان؛ لأن الأعجمي واللّحان قد يبلغان مرادهما بقولهما فلا يكونان موصوفين بالبلاغة. وزدنا حسن النظام؛لأنه قد يتكلم الفصيح بالكلام الحسن الآتي على المعنى، ولا يحسن ترتيب ألفاظه، وتصير كل واحدة مع ما يشاكلها فلا يقع ذلك موقعه).[١١١]

وهكذا، لا نجد أنفسنا ابتعدنا عن تعريف الخطابي والرمّاني، بل عمّا أورده الجاحظ من قبل، ويؤكد ذلك، أن ابن وهب خصّص كتابه وعنوانه لوجوه البيان محاولاً أن يستدرك على الجاحظ لكنه عندما عدّد هذه الوجوه جعلها أربعة :

بيان الاعتبار [١١٢]، وبيان الاعتقاد [١١٣]، وبيان العبارة [١١٤]، وبيان الكتاب[١١٥]. وهي بقدر قليل من التبصّر ترتد إلى الأوجه التي أوردها الجاحظ، والرمّاني من بعده .

ورغم أن ابن وهب وضع نصب عينيه أن يتجاوز ما عابه على الجاحظ، إلا أنه وقع في كثير مما عاب الجاحظ عليه، فنعوت البلاغة والفصاحة وشروطهما مبثوثة في الكتاب، فالبلاغة في الجمال، والجمال في اللسان كما قال الرسول ﷺ عندما سئل: فيم الجمال يا رسول الله؟فقال: في اللسان [١١٦] .

ومن أوصاف البلاغة السجع[١١٧]، وينقل عن الجاحظ أن البلاغة في البعد عن التكلف[١١٨]، ويقف على شرط سلامة النطق عند الخطيب، والشعر عنده أبلغ البلاغة[١١٩]، والفصاحة تأخذ معنى نحوياً بمجانبة اللحن .[١٢٠]

وقد يكون السكوت أبلغ من الكلام[١٢١]، ولا بدّ من مراعاة الأقدار والمقامات[١٢٢].والعيّ ضد البلاغة[١٢٣]، ويضفي عليه مسحة اجتماعية أو أخلاقية فهو مذموم في الرجال محمود في النساء ، وهو محمود عموماً في المسألة عند الفاقة. وبذلك نجد أنفسنا أمام شتات من الأفكار، ليس يبعد كثيراً عمّا انتقد به الجاحظ، بل إنه أورد في خواتيم كتابه قولة انفعالية في وصف البلاغة هي من جنس ما أورده الجاحظ : (وقد ذكر أبو أيوب * – رحمه الله – ، وحسبنا بقوله في هذه المصانعة، رجلاً بالبلاغة، فأتى في ذكره بأوصافها، وما يستحسن منها فقال [١٢٤]:(كان والله بارع المنطق، جزل الألفاظ، فصيح اللسان، ليس بالهذر في منطقه، ولا المتعسّف في مقصده، ومعناه إلى القلب أسبق من لفظه إلى السمع).

ثم يعلّق على هذا بما يبدو رأيه الأخير، وحكمه الفيصل قائلاً :

(فجمع بهذه الألفاظ اليسيرة جميع ما وصفنا به البلاغة، وذكرنا به أهلها ، وأمرنا المتعاطي لها أن يستعمله فيها، فمن تهيأ له أن يكون فيها كما وصف، فهو أكتب الناس لساناً، وأحسنهم بياناً، ولو لم يُتقدّم من ذكر البلاغة إلا بهذا القول من شيخنا رحمه الله لكفى وأجزا) .

فهل ابتعدنا بقول ابن وهب هذا عن أقوال الجاحظ كثيراً ؟.

العسكري:

عن خطّة مُعدّة يصدر العسكري: فيخصص للبلاغة والفصاحة الباب الأول من كتابه بثلاثة فصول:

في الفصل الأول يعرّف البلاغة لغوياً بأنها الانتهاء إلى الغاية[١٢٥]، والفصاحة بأنها الإظهار.[١٢٦]

وفي الفصل الثاني: يضع حدّاً اصطلاحياً للبلاغة فهي (كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه من نفسه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن).[١٢٧]

ويبرز أمامنا الاحتراز نفسه الذي وجدناه عند السابقين:

(وإنما جعلنا حسن المعرض، وقبول الصورة شرطاً في البلاغة ؛لأن الكلام إذا كانت عبارته رثة، ومعرضه خلقاً، لم يسمّ بليغاً وإن كان مفهوم المعنى).[١٢٨]

بل تعاد على مسامعنا ألفاظ الجاحظ :

(ومن قال إن البلاغة إنما هي إفهام المعنى فقط، فقد جعل الفصاحة واللكنة والخطأ ... سواء).[١٢٩]

ولا يكتفي العسكري بالحدّ الذي وصفه في مقدمة هذا الفصل للبلاغة، بل يمضي يضمنه أقوالاً لبلغاء وأدباء في تعريف البلاغة تدخل ضمناً تحت عنوان الفصل الثالث الذي جعل عنوانه:القول في تفسير ما جاء عن الحكماء والعلماء في

حدود البلاغة[١٣٠]، فنجد أنفسنا أمام حدود عديدة، معظمها مما أورده الجاحظ، يجعل تكرارها هنا غير حميد ولا مفيد.

ولعلّ الأولى أن نلتفت إلى ما امتاز به العسكري بهذا الموضوع من أفكار، كان لها آثار في حدود البلاغة كما وردت في التآليف اللاحقة:

البلاغة والفصاحة :

يخرج إلى العلن، بعد خفاء، الحديث عن العلاقة بين البلاغة و الفصاحة، فمنذ عنوان الفصل الأول من الباب الأول في كتاب العسكري تبدو الفصاحة قرينة البلاغة[١٣١].وبعد أن يعرفها لغوياً، كما عرف البلاغة قبلها، يخلص إلى القول :

(وإذا كان الأمر على هذا فالفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد، وإن اختلف أصلاهما؛لأن كل واحد منهما إنما هو الإبانة عن المعنى والإظهار له)[١٣٢].

لكنّ الفصاحة تنشعب بين يديه عن البلاغة ، لأنها – كما يرى – تمام آلة البيان، وبهذا(تكون الفصاحة والبلاغة مختلفتين، وذلك أن الفصاحة تمام آلة البيان، فهي مقصورة على اللفظ؛ لأن الآلة تتعلق باللفظ دون المعنى، والبلاغة إنما هي إنهاء المعنى إلى القلب، فكأنها مقصورة على المعنى).[١٣٣]

ولعلّ العسكري قد استوحى فكرة تمام الآلة من الجاحظ، الذي أشار إليها في عدة مواضع من كتابه، التقطها العسكري، واستثمرها لرسم هذا الحد الفاصل بين الفصاحة والبلاغة، ولتجد رواجاً عند اللاحقين ويكون لها تصدّر لافت في كتبهم .

وليجعل العسكري هذا الفصل بين الفصاحة والبلاغة مسوّغاً ، يلجأ إلى التعليل، ويلوذ بالدليل: (ومن الدليل على أن الفصاحة تتضمن اللفظ، والبلاغة تتناول المعنى أن الببغاء يسمّى فصيحاً، ولا يسمّى بليغاً إذ هو مقيم الحروف، وليس له قصد إلى المعنى الذي يؤديه).[١٣٤]

وقبل أن نتساءل: من سمّى الببغاء فصيحاً ؟ وما شرعية هذه التسمية ؟ وهل تصلح وحدها دليلاً ؟نلمح التردّد على صاحب الفكرة، فيستدرك :(وقد يجوز مع هذا أن يسمّى الكلام الواحد فصيحاً بليغاً.....).[١٣٥]

ويضع لذلك شروطاً يأتلف فيها اللفظ الجيد بالمعنى الحسن . وبكلام مبهم عام يولد على يديه التفريق بين فصاحة الكلام وبلاغته :

(إذا كان الكلام يجمع نعوت الجودة، ولم يكن فيه فخامة ، وفضل جزالة ، سمّي بليغاً ولم يسمَّ فصيحاً).[١٣٦]

ويمضي يضرب أمثلة لكلام فصيح وبليغ، وبليغ وليس بفصيح، فيزرع بذلك بذور فكرة تعيش طويلاً، وتلقانا كثيراً في المؤلفات البلاغية اللاحقة .

وثمة أمور أخرى وردت عند العسكري مما يعني هذا البحث، تجدر الإشارة إليها:

إنه كثيراً ما يجمع مصطلحات البلاغة والفصاحة والبيان في تعبير واحد، لكنه لم يطلق كلمة علم إلا على البلاغة :

(علم البلاغة ومعرفة الفصاحة)[١٣٧]، (إذا أغفل علم البلاغة وأخلَّ بمعرفة الفصاحة)[١٣٨]، (الإبانة عن حدود البلاغة، وأقسام البيان والفصاحة)[١٣٩]، (من نعوت البلاغة ووجوه البيان والفصاحة)[١٤٠].ويقدّم البلاغة على الفصاحة تارة:(الإبانة عن موضوع البلاغة......... والقول في الفصاحة)[١٤١]، ويقدّم الفصاحة على البلاغة تارة أخرى : (الفصاحة والبلاغة ترجعان ....) .[١٤٢]

ويدفعه التحرز الديني أحياناً إلى مضائق زلقة :

– البلاغة من صفة الكلام لا من صفة المتكلم، (فلهذا لا يجوز أن يسمّى الله عز وجل بأنه بليغ ؛ إذ لا يجوز أن يوصف بصفة كان موضوعها الكلام) .[١٤٣]

– والفصاحة تمام آلة البيان، (فلهذا لا يجوز أن يسمّى الله تعالى فصيحاً ؛ إذ كانت الفصاحة تتضمن معنى الآلة، ولا يجوز على الله الوصف بالآلة) .[١٤٤]

– ويظهر تحوّطه عندما يرى أن (تسميتنا المتكلم بأنه بليغ توسّع، وحقيقته أن كلامه بليغ، كما تقول: فلان رجل محكم، وتعني أن أفعاله محكمة . قال الله تعالى : "حكمة بالغة " القمره.

فجعل البلاغة من صفة الحكمة، ولم يجعلها من صفة الحكيم).[١٤٥]

وسوف نرى أن أفكاره هذه التي عرضها في هذا العهد المبكر، ستجد حظوة وقبولاً عند المتأخرين، ويتم استنباتها لتصبح أبواباً مقيمة في كتبهم .

الباقلاني :

لم يعرف البلاغة، ولكنه سار على هدي الرمّاني دون أن يسميه فجعلها عشرة أقسام آخرها حسن البيان[١٤٦].وأما الفصاحة فقد أشار إلى اختلاف الناس بشأنها، (فمنهم من عبّر عن معناها بأنه ما كان جزل اللفظ حسن المعنى، وقد قيل معناها : الاقتدار على الإبانة عن المعاني الكامنة في النفوس على عبارات جلية، ومعانٍ نقية بهية) .[١٤٧]

واضح أن الباقلاني لم يبنِ على ما قاله العسكري، والفصاحة عنده ليست مقصورة على الألفاظ دون المعاني، بل هناك ربط بين اللفظ والمعنى، بل يبدو أن الباقلاني لم يهتم بالتفريق بين المصطلحات البلاغية الكبرى الأساسية، فهي ترد في كتابه كما كان حالها أول أمرها متداخلة لا تلمس فروقاً تذكر بينها، ومن أمثلة ذلك أقواله :

(وما تختلف فيه طرق البلاغة، وتتفاوت من جهته سبل البراعة، وما يشتبه له ظاهر الفصاحة).[١٤٨]

(كانوا يتفاخرون باللسن والذلاقة والفصاحة والذرابة) .[١٤٩]

(صنوف البلاغات، وأجناس الفصاحات) .[١٥٠]

(تفصيل إعجاز القرآن وفصاحته، وعجيب براعتـه...وليعرف حدود البلاغة، مواقع البيان والبراعة ووجه التقدم في الفصاحة) .[١٥١]

والمصطلحات البلاغيـة الأساسية منثـورة فـي كتابـه دون تنظيم أو تبويب أو تحديد أو تفريق: فهو يذكر البلاغة[١٥٢]، والبيان[١٥٣]، والفصاحة[١٥٤]، والفصاحة والبلاغة معاً .[١٥٥]

وقـد جعـل البيـان أحـد أوجـه البلاغـة العشـرة، فبـدا كـأن البلاغـة أعـمّ مـن البيان[١٥٦].

لكنه خصص فصلاً لذكر البديع من الكلام، ضمنه أنواعاً من فروع البلاغة المتأخرة: المعاني والبيان والبديع .

ويعرض سؤالاً عن الإعجاز القرآنـي: (إن سأل سائل فقال : هل يمكن أن يعرف إعجاز القرآن من جهة ما تضمنه من البديع ؟)[١٥٧] ثم يستعرض عناصر من العلوم البلاغية الثلاثة [١٥٨] .

وعلق صراحة في موضع لاحق أن البديع هو البلاغة : (إن من النـاس من يريد أن يأخذ إعجاز القرآن من وجوه البلاغة التي ذكرنا أنها تسمى البديع)[١٥٩].

لكن يختلط علينا الأمر في موضع آخر عندما يقول :(ولكن قد يمكن أن يقال فـي البـديع الـذي حكينـاه وأضـفناه إلـيهم : إن ذلـك مـن أبـواب البراعـة، وجـنس مـن أجناس البلاغة، وإنـه لا ينفك هذا القرآن عن فن من فنـون بلاغاتهم، ولا وجـه مـن وجوه فصاحاتهم) .[١٦٠]

وبذلك، فإننا لا نجد أن الباقلاني أضاف جديداً مفيداً لتعريف البلاغة أو أي من علومها، ولم يظهر بين يديه فروق بيّنة بين فروعها .

ابن سنان الخفاجي :

لا يضع ابن سنان تعريفاً خاصاً بالبلاغة ، رغم أنه نعى على سابقيه أنـهم لـم يفعلوا ذلك، واكتفوا برسم حدود لها أشبه برسوم وعلائم لا تصمد عند التحقيق.

وقد أورد بعض تعريفاتهم وانتقدها[١٦١]. لكنـه استحسن أحدها :

(وما أحسن ما قال إبراهيم بن محمد المعروف بالإمام : " يكفي من حظ البلاغة أن لا يؤتى السمع من سوء فهم الناطق، ولا الناطق من سوء فهم السامع")[١٦٢]. وتلك مقولة كان قد أوردها الجاحظ، واستحسنها أيضاً.وهي ليست حداً، ولا تختلف عن الأقوال التي انتقدها ابن سنان، ورآها رسوماً وعلائم لا ترقى إلى رتبة الحدود الصحيحة .

وقد وجّه اهتمامه نحو الفصاحة التي جعلها عنوان كتابه، وهي عنده شطر البلاغة[١٦٣]، فحام حول تعريفها اللغوي " الظهور والبيان" ، ثم وقف على الفرق بين الفصاحة والبلاغة، فظهرت فكرة العسكري التي سبقت، فظهرت بين يدي ابن سنان على نحو أوضح وآكد :

(الفرق بين الفصاحة والبلاغة أن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ، والبلاغة لا تكون إلا وصفاً للألفاظ مع المعاني .لا يقال في كلمة واحدة لا تدل على معنى يفضل عن مثلها بليغة وإن قيل إنها فصيحة)[١٦٤] .

إنها فكرة العسكري واضحة مطورة، كانت الفصاحة هناك للفظ، والبلاغة للمعنى، فظلت الفصاحة هنا للفظ، وأصبحت البلاغة للفظ مع المعنى، وانقشع بعض الغيم اللذي اعترى العلاقة بين المصطلحين عند العسكري، وتجلّى الأمر هنا بمقولة عقلية فاصلة:(كل كلام بليغ فصيح، وليس كل فصيح بليغاً).[١٦٥]

ويضع ابن سنان شروطاً للألفاظ منفردة، وشروطاً أخرى للألفاظ منظومة بعضها مع بعض[١٦٦]: وجعل عددها ثمانية، وهي في مجملها ملتقطة من شذرات كانت لها إلماعات في كتاب البيان والتبيين، تباعد مخارج حروفها، وحسن سمعها، وترفعها عن الوحشية، أو العاميّة، وجريانها على العرف العربي الصحيح، ومتوسطة عدد الحروف، ولم يرتبط استعمالها بما يستكره من معانٍ، ويعبّر بها عن شيء لطيف عند التصغير.

تصدّرت قولة ابن سنان " كل كلام بليغ فصيح، وليس كل فصيح بليغ" ، معظم الكتب البلاغية اللاحقة، عند الحديث عن العلاقة بين الفصاحة والبلاغة، والفصل القسري بينهما، كما دارت شروطه في فصاحة الألفاظ مفردة ومركبة في تلك الكتب، وتكررت الأمثلة ذاتها في كثير من الأحيان، ودارت حول الأمر نقاشات، وثارت خلافات، أصبح لها ركن مكين في التآليف البلاغية.

والمتصفّح لكتاب ابن سنان يجد دون عناء العديد من المواضع التي تثبت أن هذا الفصل لم يكن حاسماً مقنعاً حتى لصاحبه الذي شرعه وشرّع له:

فمن شروط اللفظة الفصيحة ألا يكون تاريخ استعمالها قد ارتبط بمعنى مستكره، والواضح أن هذا يتعلق بالمعنى، والاستيحاء النفسي الذهني وليس بحروف اللفظة.وابن سنان يقول :

(من شروط الفصاحة والبلاغة الإيجاز)، وقد جمعهما معاً في معنى واحد.

ويقول: (ومن شروط الفصاحة والبلاغة أن يكون معنى الكلام واضحاً ظاهراً جلياً)(١٦٧).فما علاقة الفصاحة بالمعنى؟ ثم إنه غالباً ما يقرنهما معاً مقدّماً الفصاحة تارة:(ومن شروط الفصاحة والبلاغة)(١٦٨)، (ومن نعوت الفصاحة والبلاغة)(١٦٩)، ومقدّماً البلاغة تارة أخرى:(ومن نعوت البلاغة والفصاحة)(١٧٠)، (والعلم بحقيقة البلاغة والفصاحة) .(١٧١)

وقد يجمعهما مع غيرهما : (شرف الفصاحة وعظم قدر البيان والبلاغة)(١٧٢). فإذا كان لفظ الفصاحة ولفظ البلاغة ملزوزين في قرن واحد، لا معنى لأحدهما دون الآخر، ولا غنى لأحدهما عن الآخر، وإذا كان ابن سنان نفسه قد ختم حديثه في هذا الشأن بكلام استرضائي توافقي حين قال : (... ليكون هذا الكتاب كافياً في العلم بحقيقة البلاغة والفصاحة، فإنهما وإن تميزا من أوجه الذي ذكرته فهما عند أكثر الناس شيء واحد، ولا يكاد يفرق بينهما إلا القليل....)(١٧٣).

إذا كان الأمر هكذا، وكذلك، فلم كان هذا الفصل التعسفي بينهما الذي خلق قضية أشغلت البلاغيين طويلاً؟وليتهم اتفقوا! فالواقع أن هذا الأمر أوجد بيئة جديدة خصبة لخلافات حادّة جديدة كما سنرى في مواضع لاحقة من هذا البحث .

القاضي عبد الجبار:

تناول القاضي في الجزء السادس عشر من كتابه المغني، قضية الإعجاز القرآني، وانشغل بها، ووجّه الحديث عنها بما يتلاءم وفكره الاعتزالي.

لم يضع تعريفاً للبلاغة، ولا للفصاحة، لكنه عرض بعض أوصافها:

– خصّص فصلاً لبيان الفصاحة التي فيها يفضل بعض الكلام على بعض، أورد فيه قول أبي هاشم الجبائي المعتزلي :(إنما يكون الكلام فصيحاً لجزالة لفظه، وحسن معناه، ولا بد من اعتبار الأمرين معاً؛ لأنه لو كان جزل اللفظ ركيك المعنى لم يعد فصيحاً) (١٧٤) .

وبهذا القول لا تقتصر الفصاحة على اللفظ دون المعنى، بل لا بد منهما معاً.وأكّد الأمر نفسه بجلاء في موضع متأخر، فقال: (ولا يكون الكلام فصيحاً إلا بحسن معناه، ... كما لا يكون فصيحاً إلا بجزالة لفظه).(١٧٥)

وقد ظهر في ظاهر بعض كلامه انحيازه للفصاحة اللفظية التي جعل لها الفضل، وفيها التزايد: (إن المعاني لا يقع فيها تزايد، فإذاً يجب أن يكون الذي يعتبر التزايد عند الألفاظ التي يعبر فيها على ما ذكرناه) (١٧٦). وهذا أثار حفيظة عبد القاهر الجرجاني، فوجّه إليه سهام نقد قاسية.(١٧٧)

ولكن يبدو أن حمأة الخلاف المذهبي بين الرجلين قد أغمضت عيني الجرجاني عن نقاط التقارب إلى حد الالتقاء بين ما يقوله القاضي وما أفرغ له عبد القاهر جُلّ جهده وهو النظم: فالقاضي يقول صراحة : (اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، وأنما تظهر في الكلام بالضمّ على طريقه مخصوصة، ولا بدّ مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة....).(١٧٨)

وهو الذي يقول: (فالذي به تظهر المزية ليس إلا الإبدال الذي تختص به الكلمات، أو التقدم والتأخر الذي يختص به الموقع، أو الحركات التي تختص الإعراب، فبذلك تقع المباينة)(١٧٩).وهذا صميم نظرية النظم .

والقاضي هو الذي يقول :(إن الفصاحة في الكلام معقولة، وإنها تتفاضل ويكون لها رتب)[١٨٠].وهذا رأي التقطه الجرجاني، ووقف عليه مطوّلاً كما سيرد لاحقاً في البحث .

لم يعتن القاضي عبد الجبار بالتفريق بين الفصاحة والبلاغة؛فقد وردت الفصاحة منفردة في مواضع من كتابه[١٨١]، ومقرونة بالبلاغة في مواضع أخرى[١٨٢]. ولم يلتفت إلى التعريفات والحدود وتفريع علوم البلاغة، لكن وردت إشارة له لعلها كانت السانحة التي استغلها بعض لاحقيه لميز المحسنات البديعية، ودفعها خارج جسم الفصاحة، وهي قوله: (أما حسن النغم، وعذوبة القول، فمما يزيد الكلام حسناً على السمع، لا إنه يوجد فضلاً في الفصاحة).[١٨٣]

فهل قبس السكاكي هذه الإلماعة ليخرج المحسنات البديعية من حدود المعاني والبيان ؟ يجوز ذلك .

ابن رشيق (٤٦٣هـ) :

خصّص باباً للبلاغة [١٨٤]حشد فيه طوائف من التعاريف متبعاً نهج الجاحظ والعسكري، مردّداً كثيراً من أقوالهما. وانتهى إلى مقولة ارتضاها، ورآها جماعاً للباب كلّه:

(ومدار هذا الباب كله على أن البلاغة وضع الكلام موضعه من طول أو إيجاز مع حسن العبارة.ومن جيد ما حفظته قول بعضهم: البلاغة شدّ الكلام معانيه وإن قصر، وحسن التأليف وإن طال).[١٨٥]

وكما خصّص ابن رشيق باباً للبلاغة، فقد خصّص باباً آخر للبيان[١٨٦]، وباباً للنظم[١٨٧]، كان فيهما تابعاً للجاحظ أيضاً.

وخصّص باباً للمخترع والبديع[١٨٨]، وفرّق بينهما، واستهدى بأقوال ابن المعتز.وبهذه الأبواب الأربعة يكون القيرواني قد أضاف إرهاصات أخرى لانفصال علوم البلاغة .

عبد القاهر الجرجاني :

كأن همَّ عبد القاهر كان أهمّ من كل تحديد أو تفريع أو تعريف، فقد شغلته قضيته:الإعجاز بالنظم، عن كل شاغل سواها، وكان يعجل بلسانه للإحاطة بها فتراه لهوفاً يعجل بعرض الأمر وعقله مشغول بغيره، فتكثر منه الاستدراكات على ما فات، ولا يكاد يفارق فكرة إلا وفي نفسه منها ولها أشياء وأشياء .

أصبح البيان بين يديه علماً يمدحه ولا يضع له تعريفاً . كما لم يضع تعريفاً للبلاغة أو الفصاحة أو المعاني أو البديع .....، ولم يفرّق بين هذه الفروع، لكن ظاهر الأمر أن كتابه دلائل الإعجاز فيه اعتناء بمواضيع ما عرف مؤخراً بعلم المعاني، وإن لم يخلُ من بعض مواضيع علم البيان الذي ذكره وأثنى عليه في مقدمته، وظاهر الأمر أيضاً أن في كتابه أسرار البلاغة اعتناء أكبر بمواضيع علم البيان، وإن لم يخلُ كذلك من مواضيع علم البيان، وعلائق نظرية النظم .

والمصطلحات البلاغية تتوارد بين يديه مترادفة كأن لا حدود بينها، أو لا معاني خاصة بها: وهذه أمثلة لذلك، ولا تستقصي:

- علم البيان تصدر كتاب الدلائل الذي غلبت عليه مواضيع علم المعاني .
- أسرار البلاغة عنوان الكتاب الذي غلبت عليه مواضيع علم البيان .
- ورد ذكر الفصاحة مفردة .[١٨٩]
- والبلاغة مفردة[١٩٠]، وعلم الفصاحة[١٩١]، وعلم البلاغة[١٩٢]، والبديع[١٩٣].

- تراسلت الفصاحة والبلاغة[١٩٤]، والبلاغة والفصاحة[١٩٥]، والفصاحة والبيان[١٩٦]، والفصاحة والبراعة والبيان[١٩٧]، والبلاغة والفصاحة والبيان والبراعة[١٩٨]، والبلاغة وعلم الفصاحة [١٩٩] .

ووقف الجرجاني طويلاً على العلاقة بين الفصاحة والبلاغة، وكان كلما غادر مقامها بقي في نفسه أشياء تجعله يعود إليها مجدداً، ويعيد تأكيد فكرته التي تشغله تماماً، وهي أن الفصاحة لا تكون للألفاظ مفردة مجردة، وإنما هي للألفاظ مع معانيها

ضمن ائتلاف النظم؛وقد ورد ذلك في بواكير كتابه، وما زالت تلك الفكرة تراوده ويراودها حتى الأنفاس الأخيرة من الكتاب:

يقول: (والألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلمة مفردة، وإن الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها...)[٢٠٠].

ويضرب أمثلة للفظة الواحدة في موضعين.

ويردد الفكرة ذاتها في أسرار البلاغة (ومن البيّن الجليّ أن التباين في هذه الفضيلة، والتباعد عنها إلى ما ينافيها من الرذيلة ليس بمجرد اللفظ . كيف؟....)[٢٠١] ويضرب أمثلة توضح ذلك .

ويشير إلى خطورة أن تقتصر صفة الفصاحة على اللفظ، فذلك يخرج الفصاحة من حيز البلاغة، ويخرجها من أن تكون نظيراً لها أيضاً، وفي الحالين فساد كبير كبير[٢٠٢] ؛ لأننا لو جعلنا الإعجاز في اللفظ فهذا شناعة .[٢٠٣]

ويوضح أن(الفرق بين أن تكون المزية في اللفظ، وبين أن تكون في النظم باب يكثر فيه الغلط)[٢٠٤]، ويؤكد أنه لا يكون لإحدى العبارتين مزية على الأخرى حتى يكون لها في المعنى تأثير لا يكون لصاحبتها) .[٢٠٥]

وقد استأنف تقريراً في هذه المسألة يزيد الناس تبصيراً وينقذهم من عمياء أمرهم، وواجه القاضي عبد الجبار دون أن يسميه، مثبتاً أن التزايد يقع في المعاني؛(لأن التزايد في الألفاظ من حيث هي ألفاظ، ونطق لسان، محال) .[٢٠٦]

وحتى خواتيم كتابه ظلّ يتلفت دون ملل إلى هذه القضية، فالفصاحة ملتحمة بالبلاغة، ولا جدوى من فصلهما، ولا قيمة للألفاظ إلا مركبة مع معانيها في أسلوب نظم .

والمستهجن أن عبد القاهر بعد كل هذا التوضيح والتأكيد، وجد من المتأخرين من لم يحمل كلامه على محمله الصحيح، وظن فيه تناقضاً، وراح يدافع عنه كما سيأتي لاحقاً في هذا البحث .

الزمخشري :

ليس له مؤلف بلاغي خاصّ، لكنه طبق أفكار عبد القاهر الجرجاني. ورغم إشارته إلى أهمية علمي المعاني والبيان في التفسير، إلا أنه لم يُعن بتعريفهما، أو التفريق بينهما، بل نحا منحى عملياً وظيفياً فاستثمر معطياتهما في تفسيره العظيم الكشّاف.

الرازي :

تضعه كثير من مؤلفات التأريخ البلاغي مع السكّاكي في قرن، من حيث السير بالبلاغة نحو التقعيد والتقنين.(٢٠٧)

وهو يعترف صراحة أن كتابه تلخيص لكتابي عبد القاهر ، وأنه مقدم على تبرئته مما عاب عليه عبد القاهر من غياب التنظيم و التبويب.(٢٠٨)

تحدّث عن أطراف البلاغة، تلك الفكرة التي لمعت عند الرماني، وظلّت مقيمة حتى آخر عهد التأليف البلاغي.

ورد في كتابه إشارة إلى علمي المعاني والبيان .(٢٠٩)

وفي كتابه التفات إلى الفصاحة وعلاقتها بالبلاغة دون أن يعرفهما صراحة(٢١٠)، وقد جعل الفصاحة سبب الإعجاز القرآني، وقد جهد في إثبات أن الفصاحة لا بدّ أن تعود للفظ والمعنى معاً .(٢١١)

ابن الأثير :

لم يضع ابن الأثير تعريفاً للبلاغة ولا للفصاحة، ورغم أن علم البيان عنده يدل على علوم البلاغة إلا أنه لم يضع له تعريفاً أيضاً، وإنما خصص الفصل الأول من كتابه لموضوعه(٢١٢)، والفصل الثاني لآلاته وأدواته(٢١٣) وتداخلت المصطلحات في كتابه على غير خطة واضحة :

– فهو يذكر علم البيان(٢١٤).ويذكر أن علم البيان هو الفصاحة والبلاغة(٢١٥).ويذكر البلاغة(٢١٦).ويذكر الفصاحة والبلاغة(٢١٧).ويذكر البلاغة

والفصاحة[٢١٨].ويذكر علم الفصاحة والبلاغة[٢١٩].ويذكر أن الفصاحة هي البيان[٢٢٠]، أو الظهور والبيان [٢٢١].

ويبدو أن قضية العلاقة بين الفصاحة والبلاغة أصبحت من الثوابت في التأليف البلاغي، وقد وقف عليها ابن الأثير مفتتحاً الحديث عنها بالإشارة إلى صعوبتها وكثرة الباحثين فيها، وقلة الفائدة في نتاج بحوثهم.[٢٢٢] ويزعم أن سابقيه يقفون على حدود المعنى اللغوي الأولي للفصاحة وهي الظهور والبيان، ويدلل على أن هذا المعنى البدائي لا يكفي للكشف عن حقيقة الفصاحة، معترضاً بعدّة أوجه من الاعتراضات[٢٢٣]. ثم يبدأ عرض رأيه فيذكر تفاصيل توضح معنى اللفظ الظاهر البيّن.خلاصتها أن تكون الألفاظ مفهومة، مألوفة الاستعمال، مختارة لحسنها.[٢٢٤]

ويخالف القاضي عبد الجبار، وعبد القاهر الجرجاني، دون أن يسميهما، يخالفهما في ما ذهبا إليه من أن اختبار اللفظ لحسنه يخضع للعقل، فهو يرى(أن هذا من الأمور المحسوسة ... فالذي يستلذه السمع فيها ويميل إليه هو الحسَن، والذي يكرهه وينفر عنه هو القبيح) [٢٢٥]. ويضرب لذلك أمثلة دالّة.[٢٢٦]

وبذلك، بدا كأنه قصر الفصاحة على اللفظ، فعادت القضية جذعة بعد أن حسمها الجرجاني، فاحتال للأمر فقال: (وليس لقائل ههنا أن يقول: لا لفظ إلا بمعنى، فكيف فصلت أنت بين اللفظ والمعنى؟ فأنا لم أفصل بينهما، وإنما خصصت اللفظ بصفة هي له.والمعنى يجيء فيه ضمناً وتبعاً)[٢٢٧]. بل يلامس نظرية النظم فيرى حسن اللفظة أو قبحها يظهر عند سبكها مع غيرها.[٢٢٨]

ويمضي عارضاً اعتراضات مفترضة على أمور ذات صلة بالفصاحة وظهور المعنى[٢٢٩] إلى أن يشرع في الحديث عن البلاغة[٢٣٠]، التي تشمل الألفاظ والمعاني كما يرى، فهي أخصّ من الفصاحة.وتعود إلى الظهور بين يديه مقولة: كل كلام بليغ فصيح، وليس كل كلام فصيح بليغاً. ويؤكد بذلك الفرق بين الفصاحة والبلاغة خصوصاً وعموماً، فالبلاغة لا تكون إلا في اللفظ والمعنى عند التركيب، أما اللفظة منفردة فهي فصيحة، ولا يجوز وصفها بالبلاغة.[٢٣١]

ويخصّص مقالة ضافية للصناعة اللفظية[٢٣٢]، يتحدث فيها مجدّداً عن الفصاحة والبلاغة، مبيناً أن هذا الموضع يضلّ فيه العلماء فكيف بالجهّال؟ ويستحضر أقوال سابقيه في فصاحة الألفاظ المفردة، منوهاً باختلافاتهم، معرّضاً بأنهم (لو حققوا النظر ووقفوا على السرّ في اتصاف بعض الألفاظ بالحسن، وبعضها بالقبح لما كان بينهم خلاف في شيء منها).[٢٣٣]

ويبدأ بتأكيد أن الألفاظ، تتفاوت حقاً، حسناً وقبحاً، ويسخر بقسوة شديدة ممن يرى الألفاظ كلها حسنة[٢٣٤]، ثم يفرغ لمواجهة ابن سنان الخفاجي، متناولاً شروطه التي وضعها لفصاحة اللفظة، فينقضها شرطاً إثر شرط[٢٣٥]، ويجعلها أثراً بعد عين في حديث طويل جداً يضيق المقام عن الإحاطة بتفاصيله.

ويتركنا نتساءل : هذان عالمان بلاغيان، لهما رأيان متعارضان في مسألة واحدة، فأيّهما نأخذ كلامه؟ وبأيّهما نقتدى؟ وأين الجهد البلاغي التراكمي الذي أثمر في البلاغة تحديداً، ووضوح رؤية جملة وتفصيلاً؟.

السّكاكي :

بين يدي السكّاكي تفارق البلاغة آفاقها الرحبة لتنقاد إلى مضائق محصورة يحكمها التعريف والتنظيم والتبويب والتفريع. إنها تحتل الجزء الثالث من كتابه: المفتاح، قد تفرّعت صراحة إلى علمين: المعاني والبيان، وألحق بهما أوجهاً من التحسين اللفظي والمعنوي.

تعريف علم المعاني :

(هو تتبع خواصّ تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره).[٢٣٦]

ولأن السكّاكي في هذا التعريف يحاول الإحاطة بكثير من التفاصيل بقليل من الألفاظ، فكأنه شعر بما في تعريفه من عوص والتواء، فراح يشرح ويفصل:

(وأعني بتراكيب الكلام: التراكيب الصادرة عمّن له فضل تمييز ومعرفة وهي تراكيب البلغاء. وأعني بخاصيّة التركيب: ما يسبق إلى الفهم عند سماع ذلك التركيب جارياً مجرى اللازم له؛لكونه صادراً عن البليغ ... . وأعني بالفهم فهم ذي الفطرة السليمة).(٢٣٧)

تعريف علم البيان :

(هو معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه، وبالنقصان، ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه).(٢٣٨)

وهنا أيضاً يلجأ إلى الاستعانة بملحق للتوضيح يضيق عنه التعريف، فتحدث عن مقتضى الحال(٢٣٩)، وعن فكرة لكلّ مقام مقال .(٢٤٠)

وفي موضع متأخر جداً من كتابه، يرغب في ألا يفارق المقام دون أن يتناول مفهوم البلاغة والفصاحة والفرق بينهما:

تعريف البلاغة :

(هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدّاً له اختصاص بتوفية خواصّ التراكيب حقّها، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها).(٢٤١)

وهو يطوي تحت جناح هذا التعريف علمي المعاني والبيان فقط؛ لأنه عازم على جعل ما عرف بعده " بعلم البديع " ملحقاً بالبلاغة لا مكوّناً من صلبها : فهي مجرّد (وجوه مخصوصة كثيراً ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام).(٢٤٢)

وأما الفصاحة فلم يُعرّفها، واكتفى بجعلها قسمين: أحدهما يرجع إلى المعنى، والثاني يرجع إلى اللفظ، وبعث الشروط التي كان قد وضعها ابن سنان الخفاجي من جديد.(٢٤٣)

كما بعث حديث الرمّاني عن أطراف البلاغة، لكنه اختصرها، فهي عنده طرفان فقط:

(أعلى وأسفل متباينان، وبينهما مراتب، تكاد تفوت الحصر مفاوتة. فمن الأسفل تبتدئ البلاغة وهو القدر الذي إذا نقص منه شيء التحق ذلك الكلام بـ... أصوات الحيوانات، ثم تأخذ في التزايد متصاعدة إلى أن تبلغ حدّ الإعجاز وهو الطرف الأعلى وما يقرب منه).(٢٤٤)

وقبل أن نمعن النظر في تعريفات السكّاكي، وحدوده، لنرى هل وصل بنا إلى الطمأنينة بأنه أصبح لدينا مسلك واضح، ومعيار دقيق للحكم على بلاغة الكلام، نرى السكّاكي نفسه يشكّك في ذلك قائلاً:

(واعلم أنّ شأن الإعجاز عجيب يدرك ولا يمكن وصفه، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها وكالملاحة. ومدرك الإعجاز عندي هو الذوق ليس إلا. وطريق اكتساب الذوق طول خدمة هذين العلمين).(٢٤٥)

وبذلك نجد أنفسنا في هذه المرحلة الفاصلة من التراث البلاغي، أمام تعريفات صارمة، وحدود حازمة، لم نتمكّن من توظيفها، والإفادة منها، والاعتماد عليها عند النظر في أهم قضية بلاغية وهي الإعجاز القرآني.

ونمضي قدماً لننظر : هل أقرّ اللاحقون هذه التعريفات، وهذه التفريعات؟ أم أنها خضعت للنقد ولمعاودة النظر ؟ .

العلوي :

قرن من الزمان وأكثر يفصل العلوي عن السكّاكي، الذي غادرنا البلاغة بين يديه حدوداً حازمة، وتعريفات منطقية، فكيف كان الأمر عند العلوي؟

إنه – كعادة من قبله – ينتقد سابقيه على غياب الحدود الحاصرة والتعريفات اللائقة للبلاغة(٢٤٦)، فيتصدّى هو للأمر، فيقرّ أن للبلاغة علمين هما علم المعاني وعلم البيان، ويفرق بينهما على نحو جديد :

(فإذا قلنا علم المعاني فالمقصود علم البلاغة على أساليبها وتقاسيمها، والمفهوم من قولنا علم البيان هو الفصاحة. وهي غير مقصورة على الكلمة المفردة دون المركبة).[٢٤٧]

ويؤكّد ذلك مكرّراً : (فعلم المعاني وعلم البيان يرجعان في الحقيقة إلى علم البلاغة والفصاحة).[٢٤٨]

وقوله هذا إعادة لفكرة السكّاكي الذي فرّع علمي المعاني والبيان عن البلاغة، لكنّ قول العلوي جعل الأمر ملبساً حائراً بين أن يكون علم المعاني فرعاً للبلاغة أو رديفاً لها .

ويضع تعريفاً خاصّاً للبيان مستوحى أيضاً من تعريف السكّاكي فيقول:

(علم البيان حاصله إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه كالاستعارة والكناية والتشبيه، وغيرها).[٢٤٩]

ثم يحاول مزج العلمين معاً ليضع لهما تعريفاً واحداً، فتنتثر لهما بين يديه ثلاثة تعريفات[٢٥٠]:

١- (هو العلم بجواهر الكلم المفردة والمركبة، ودلائل الألفاظ المركبة لا من جهة وصفها وإعرابها). ويشرح:(العلم بجواهر الكلم المفردة والمركبة يشير إلى علم البيان) ، (ودلائل الألفاظ المركبة نرمز به إلى علم المعاني).ويعيد التأكيد بأن المقصود من علم المعاني هو البلاغة ، وأن المقصود بعلم البيان هو الفصاحة .

٢- (هو العلم بما يعرض للكلم المفردة والمركبة من الفصاحة، ويعرض للكلم المركبة من البلاغة على الخصوص). ويؤكد أيضاً أنّ الفصاحة علم البيان، والبلاغة علم المعاني.

٣- (هو العلم الذي يمكن معه الوقوف على معرفة أحوال الإعجاز) . ويبين ألّا سبيل إلى معرفة الإعجاز إلّا بهذا العلم .

التعريفات الثلاثة عرضة للعديد من الطعون، أقلّها يخرجها من حصانة حدود العلوم، وتكفي الإشارة إلى أنّ التعريف الأول يذكر جواهر الكلم، ودلائل الألفاظ، دون أن يقفنا على المراد من جواهر الكلم، ودلائل الألفاظ. والثاني يعرّف الشيء بنفسه، فعلم البلاغة(البيان والمعاني) هو العلم بما يعرض للكلم من فصاحة وبلاغة. فأين كنه الفصاحة والبلاغة ؟ .

والثالث يحدّد علم البلاغة بأنه السبيل إلى معرفة أحوال الإعجاز.فإن سألنا : ما الإعجاز؟وكيف نعرف الإعجاز؟ قيل: الجواب: بعلم البلاغة. فنسأل:ما علم البلاغة؟ فيقال: السبيل إلى معرفة الإعجاز.فنرجع دون أن نعرف بلاغة أو إعجازاً.

ويزيد الأمر بعداً عن حدود العلوم، هذه الاختيارات المفتوحة على تعاريف ثلاثة مختلفة.ولن يفيدنا كثيراً شعورُ العلوي بحرج أمره، وعَرْضُ تبريره، بقوله:

(فإن قال قائل:إنّ ما ذكرتموه من هذه التعريفات مختلفة في أنفسها؛لأن كلّ واحد منها يفيد فائدة مخالفة لما يفيده الآخر، فلهذا حكمنا بكونها مختلفة، ومهما كانت التعريفات مختلفة، كانت الحقائق ذواتها مختلفة، فكيف جعلتموها دالة على حقيقة واحدة ؟) .(٢٥١)

هذا هو صوت الحق الذي صوّر تعريفات العلوي بصدق.فبمَ أجاب ؟ :

(وجوابه أنها مع اختلافها، وتباين أحوالها لا يمتنع كونها دالّة على حقيقة واحدة، وهذا غير ممتنع فإن الأشياء المتغايرة قد تكون دالّة على معنى واحد كالألفاظ المترادفة ....) .(٢٥٢)

وما نظن أن غيم هذا الجواب قادر على أن يغطي شمس الحقيقة الساطعة في السؤال . وفي وقفته المطوّلة على أمر الفصاحة والبلاغة، وجرياً على عادة من سبقوه، مضى العلوي وقد رفع من شأن هذا الموضوع، فهو عنده (من أجلّ علوم

البيان وأعلاها، وأرسخ قواعده وأسماها، وفيه تتفاوت القيم، وتتفاضل الهمم....) .[٢٥٣]

وبعد أن يصف اختلافات السابقين في هذا الأمر، ويستعرض آراءهم، يمضي على نهجه الاسترضائي الهلامي، فيعرض للقارىء اختيارات عديدة في المسألة :

انطلق مما يراه إجماعاً لا خلاف عليه بين أهل التحقيق من علماء البيان بأن الكلام لا يوصف بالبلاغة إلا إذا حاز مع جزالة المعنى فصاحة الألفاظ، ولا بدّ من الأمرين كليهما معاً .[٢٥٤]

أما في الفصاحة فقد تعددت الآراء: هل تكون من عوارض الألفاظ ، أو المعاني، أو لمجوعهما معاً، فنتج عن ذلك – كما يرى – مذاهب أربعة :

الفصاحة في الألفاظ، أو في المعاني، أو في الألفاظ باعتبار دلالتها على مسمياتها المعنوية، أو في الألفاظ والمعاني معاً .

واضح أنه ينقل آراء سابقيه جميعاً . ثم يختار رأي عبد القاهر الجرجاني دون أن يسميه، فيرى الفصاحة (من عوارض الألفاظ، لكن ليس بالإضافة إلى مطلق الألفاظ فقط، ولكن بالإضافة إلى دلالاتها على معانيها) .[٢٥٥]

ويدا أنه قد حسم أمره بالقول : (فأما من زعم أن الفصاحة متعلقها اللفظ لا غير فقد أبعد)[٢٥٦].ويسند هذا الرأي القديم بقول سبق لعبد القاهر الجرجاني دون أن يسميه أيضاً : (فإن الألفاظ لا ذوق لها، ولا يمكن الإصغاء إلى سماعها إلا لأجل دلالاتها على معانيها) .[٢٥٧]

لكنه عاد إلى التشكّك فقال: (وغالب ظني أنه لا بدّ من اعتبار المعنى)[٢٥٨]

ويمضي مردّداً أقوال السابقين في العلاقة بين الفصاحة والبلاغة من ناحية العموم والخصوص، والإفراد والتركيب، المستوحى من قوله : كل كلام بليغ فصيح، ولا عكس .[٢٥٩]

ويطعّم بقوله بما تناقلته الكتب عن البلاغة منذ عهد الجاحظ من أقوال انفعالية عامة، ليختم حديثه بحكم لا يقلّ عنها عمومية وانفعالية :

(إنّ أجمع عبارة في وصف البلاغة والفصاحة هو ما أجمعوا عليه من قولهم : " إنّ الكلام إذا أشرقت شمس لفظه، انكشف لُبس معناه "، فإنها حاوية لمعاني البلاغة، ومستولية على أسرار الفصاحة لما في الإشراق من الانكشاف والظهور، وقوله : " انكشف لُبسه " ، يشير إلى ما تضمنه من البلاغة لاشتمالها على إظهار المعاني) .[٢٦٠]

نعم، كأننا بهذا رجعنا القهقرى عدّة قرون لنقرأ قولاً للجاحظ، أو قولاً مقروناً بشرح موجز للعسكري على أحسن تقدير .

القزويني :

أصبح كتاب السكاكي نجماً قطبياً في فلك البلاغة العربية، دارت حوله المؤلفات : شروحاً، وتقارير، وإيضاحاً، وتلخيصات..... وكان القزويني صاحب الحظوة الكبرى في ذلك، فلخّص مفتاح السكاكي، في كتابه : " التلخيص " ، ثم عاد فأوضح تلخيصه في كتابه " الإيضاح ".وشُهر كتاب التلخيص حتى فاقت شهرته شهرة المفتاح، وغدا محور الدرس البلاغي، وبدا أنّ البلاغة العربية قد قيل فيها القول الأخير .

جعل القزويني الحديث عن البلاغة والفصاحة مقدمة كتابيه[٢٦١] بعد أن كان ذلك في خواتيم كتاب السكاكي.

لم يضع تعريفاً صريحاً للفصاحة بل أشار إلى الفرق بينها وبين البلاغة، (فالفصاحة يوصف بها المفرد والكلام والمتكلم، والبلاغة يوصف بها الأخيران فقط)[٢٦٢] . ووصف الفصاحة في المفرد[٢٦٣]، وفي الكلام[٢٦٤]، بما لا يبعد عن وصف السكاكي ، أو أوصاف سابقيه.

وانفرد عن السكاكي بتعريف فصاحة المتكلم التي أضافها، خلافاً لرأي العسكري الذي سبق، فهي، (ملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح)[٢٦٥] . وعزف عن تعريف السكاكي للبلاغة، فعرّف بلاغة الكلام بأنها (مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته)[٢٦٦] .

ويتحدث بالتفصيل عن مطابقة مقتضى الحال[٢٦٧]، ويمسّ الشعرة الدقيقة الخفية بين الفصاحة والبلاغة، (فالبلاغة راجعة إلى اللفظ باعتبار إفادته المعنى بالتركيب)[٢٦٨]، ويظهر عليه التردّد في شأن هذا الفصل المفتعل بين الفصاحة والبلاغة، فيستدرك أثر قوله السابق :(وكثيراً ما يسمى ذلك فصاحة أيضاً).[٢٦٩]

ويستقوي برأي عبد القاهر الجرجاني، فيقول :

(وهذا مراد الشيخ عبد القاهر بما يكرره في دلائل الإعجاز من أنّ الفصاحة صفة راجعة إلى المعنى دون اللفظ) [٢٧٠] .

وكما فعل السكاكي، يشير القزويني إلى طرفي البلاغة، بعد أن غيّر عبارة السكاكي الواضحة إلى عبارة ملبسة التركيب في التلخيص : (ولها طرفان : أعلى وهو حدّ الإعجاز وما يقرب منه، وأسفل وهو ما إذا غيّر الكلام عنه إلى ما دونه التحق عند البلغاء بأصوات الحيوانات، وبينهما مراتب كثيرة) [٢٧١]. وسنرى أن الجزء الأول من عبارته سيثير الكثير من الإشكال حول حدّ الإعجاز وطرف البلاغة الأعلى.

وحاول أن يجعل عبارته أكثر وضوحاً في الإيضاح، إذ قال:

(وللبلاغة طرفان : أعلى إليه تنتهي، وهو حدّ الإعجاز وما يقرب منه، وأسفل منه تبتدىء.....)[٢٧٢]. ولم يغفل تعريف بلاغة المتكلم كما سبق له في فصاحة المتكلم مخالفاً بذلك أيضاً توصية العسكري، فهي (ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ) . ولم يغفل أيضاً ترديد مقولة : " كل كلام بليغ فصيح، ولا

عكس"، فيعيد إنتاجها على نحو منسجم مع إضافاته، فيقول : (إنّ كل بليغ كلاماً كان أو متكلماً فصيح، وليس كل فصيح بليغاً)(٢٧٣) .

وفي آواخر هذه المقدمة تتفرّع علوم البلاغة : المعاني والبيان، والبديع، فالبلاغة في الكلام مرجعها إلى الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد، أو الاحتراز عن التعقيد المعنوي، والعلم الذي يُعنى بالاحتراز عن الأول هو علم المعاني، والذي يُعنى بالاحتراز عن الثاني هو علم البيان.وعلم البديع يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه لمقتضى الحال وفصاحته .

ويظهر البديع بين يدي القزويني علماً مستقلاً قائماً برأسه بعد أن كان ملحقاً بعلمي المعاني والبيان عند السكاكي .

وقبل أن نغادر هذا المقام بهذا القول الفصل، تظهر بضع كلمات تكون كافية لزعزعة هذه النتيجة، يقول القزويني : (وكثير يسمّي الجميع علم البيان، وبعضهم يسمّي الأول علم المعاني والأخيرين علم البيان، والثلاثة علم البديع)(٢٧٤).

وبهذا القول، نبدو كأننا لم نصل إلى قرار، وأننا ملزمون بإعادة النظر لنقيّم ونختار. ثم يلتفت القزويني إلى تعريف هذه العلوم عند ورودها في كتابيه، وفق الترتيب المتبع:

علم المعاني :

(هو علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال).(٢٧٥)

علم البيان :

(هو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه).(٢٧٦)

علم البديع :

(هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة).(٢٧٧)

وبذلك، نجد القزويني قد استبدل بتعريفات السكّاكي تعريفات جديدة مختلفة، قد نسلّم له بأنها أكثر وضوحاً، وأقلّ التواءً وعوصاً، لكننا بها نكون كأننا قد بدأنا من جديد، لتعود الحيرة، ونستعيد القول: بأي الرأيين نأخذ ؟: برأي المصنّف أم رأي الشارح ؟.

وهل زادنا كلام القزويني استواءً في السبيل، ووضوحاً في الحدود؟ لقد بدا في بعض كلامه مفرطاً في ابتغاء التوضيح والتحديد:

إنه، مثلاً، يعترض على السكّاكي الذي عرّف علم المعاني بأنه "تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة"، فيرى أن التتبع ليس علماً، ولا يجوز أن يكون حدّاً لعلم.[٢٧٨]

وهو يعرّف فصاحة المتكلّم، أو بلاغة المتكلّم بأنها (ملكة يقتدر بها على...)[٢٧٩] ، ويصبّ جهده لتوضيح المقصود بقوله : "ملكة" :

(فالملكة قسم من مقولة الكيف التي هي في هيئة قارّة لا تقتضي قسمة ولا نسبة. وهو مختصّ بذوات الأنفس، راسخ في موضوعه.وقيل "ملكة"، ولم يقل"صفة" ليشعر بأن الفصاحة من الهيئات الراسخة ... وقيل يقتدر بها، ولم يقل يعبّر عنها ليشمل حالتي: النطق وعدمه ....).[٢٨٠]

ماذا جنت البلاغة من كل هذه التحوطات والاحترازات والاستدراكات ؟ وماذا جنت من تعريف فصاحة المتكلم بأنها ملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح ؟ وماذا يعنينا، بلاغياً، من هذه القدرة الكامنة لنحكم على صاحبها ناطقاً كان أم صامتاً ؟ بل ماذا جنت البلاغة من هذا التفريع الجديد العتيد وهو فصاحة المتكلم، أو بلاغة المتكلم طالما أن الذي يعنينا هو المنطوق الفصيح، أو المنطوق البليغ؟ وكيف يمكن الفصل بين القول الفصيح أو البليغ، وبين صاحبه؟.

هذا مثال واحد من عشرات مثله يعرضه البحث للتفكر في شأن التطور الذي أصاب التأليف البلاغي، وهل كان لصالح البحث البلاغي أو لغير صالحه ؟

وسنرى لاحقاً أن هذه الإشكالات الفرعية هي التي استنفدت معظم الجهود البلاغية، وحرفتها عن هدفها الأهم .

السعد والسبكي والمغربي :

جُمعوا معاً لأنهم شرحوا كتاباً واحداً وهو كتاب القزويني "تلخيص المفتاح"، وآرارؤهم متقاربة مضموناً ومكاناً، ويجمعها كتاب واحد هو كتاب " شروح التلخيص " ، ولعل هذا الكتاب يمثل الحالة الأخيرة التي جمدت عليها البلاغة العربية، ولعل آراء هؤلاء الشرّاح الثلاثة، والآراء التي نقلوها وضمّنوها كتبهم، عينة كافية دالة على مضمون الشروح والحواشي والهوامش البلاغية كافة، وترسم صورة صادقة للبلاغة كما استقر عليه أمرها آخر عهدها .

في فاتحة التلخيص يقول القزويني : (أما بعد، فلما كان علم البلاغة وتوابعها.....)[٢٨١]

فيقف الشرّاح على كلمة " توابعها "، فيشرح السعد علم البلاغة بأنه (علم المعاني والبيان . وعلم توابعهما هو البديع)[٢٨٢].علماً بأنه يعود لاحقاً ليحصر البلاغة صراحةً بالمعاني والبيان .[٢٨٣]

ويجعلها المغربي علمين[٢٨٤]: (أحدهما علم المعاني، والثاني علم البيان). ويضيف: (مع العلم الذي تعرف به الوجوه المحسنة للكلام البليغ وهو البديع).

ويشير السبكي إلى التفريع الخلافيّ لعلوم البلاغة، فيبين أن (علم البلاغة تارة يطلق على العلوم الثلاثة التي تضمنها هذا المختصر، " يقصد المعاني والبيان والبديع "، وتارة يطلق على علم المعاني والبيان، وعلم البديع حينئذ تابع)[٢٨٥]. وهو بهذا يرد الأمر إلى أصله عند السكاكي .

ويوضح:(والمصنف جعل علم البلاغة مجموع العلمين، وجعل علم البديع من توابع البلاغة)[٢٨٦].ويبدي رغبته في التوفيق بين المصنف " السكاكي "، وصاحب التلخيص المشروح " القزويني " ، الذي ضم المحسنات البديعية إلى أرومة علم البلاغة، وجعله علماً قائماً إلى جوار المعاني والبيان، فيعطف على قوله الجملة السابقة: (والتابعَ والمتبوعَ علماً واحداً)[٢٨٧].

ثم يُبدأ الحديث عن الفصاحة والبلاغة[٢٨٨]، وتنهال الاعتراضات، واستعراضات الآراء المختلفة حتى لا نكاد نجد أمراً قد اتفق عليه، فبعضهم يرى البلاغة أعمّ من الفصاحة، فكل ما يوصف بالبلاغة فصيح ولا عكس، وبعضهم يرى عكس ذلك، بينما ترى فئة أخرى أن المصطلحين مترادفان، وهذا يوجب بلاغة كل فصيح .[٢٨٩]

ويحاول السبكي حسم الأمر فيقول : (وليست الفصاحة أعمّ من البلاغة، ولا العكس، بل الفصاحة جزء من البلاغة ......)[٢٩٠] . وبكلامه هذا نكون قد رضينا من الغنيمة بالإياب، بعد جهود عظيمة ضاعت دون جدوى . ورغم هذا الحل التوافقي الذي اهتدى إليه السبكي لحسم الأمر، إلا أنه نفسه كاد أن يثير قضية شاغلة أخرى، إذ قال : (مما يوصف به الكلام والكلمة أيضاً ، البراعة وأهملها الجمهور، وقد ذكرها القاضي أبو بكر في الانتصار مع الفصاحة والبلاغة، وحدّها بما يقرب من حد البلاغة) .[٢٩١]

ويتناولون فكرة جزئية صغرى، تتضخم تحت أنظارهم لتصبح قضية كبرى، وهي لمَ قدّم المصنف الفصاحة على البلاغة ؟ وتتوارد تعليلات شتى تتعلق بالإفراد والتركيب، والعمومية والخصوصية ...إلخ[٢٩٢]، ولعل هذا التقديم جاء في كلام المصنف عرضاً دون أي غرض مما يتواردونه، ويعزز هذا الرأي أن فحول البلاغة قبل السكاكي كان مصطلحا الفصاحة والبلاغة يتبادلان المواقع في مؤلفاتهم، فتتقدم

الفصاحة تارة، والبلاغة تارة أخرى دون أن يلتفت أحد إلى ما قدم أو أخر، ويمر الأمر دون جلبة أو أي اعتراض.

ويمتد الخلاف إلى مضامين الفصاحة وتفاصيل شروطها المتوارثة منذ عهد ابن سنان الخفاجي، واعتراضات ابن الأثير عليها، فتشتجر الآراء هنا، ولكل رأي حجة ودليل، فهل فصاحة اللفظة في تباعد مخارج حروفها، أم تقاربها ؟ أهي في كثرة عدد الحروف ؟ أم في قلتها ؟ ما رأي البلاغة عندما يرد في القرآن الكريم ما يعارض الفصاحة ؟ وتزدحم الأفكار في هذه الشروح، وفي رأس قارئها، وهو يبحث عن رأي خالص فلا يكاد يجده، أو خلاص فيعز عليه [٢٩٣] .

لا يكتفي السبكي بمناقشة شروط الفصاحة التي أوردها القزويني، بل يكاد يقف له راصداً عليه كل كلمة، يقول القزويني : (فالفصاحة في المفرد خلوصه من تنافر الحروف....).[٢٩٤]

وتتكرر عنده كلمة خلوصه في فصاحة الكلام، فيعلّق السبكي : (كان الأحسن اجتناب لفظ الخلوص لغلبة استعماله في الانفكاك عن الشيء بعد السكون فيه، وليس المراد هنا كذلك)[٢٩٥].ويستجلب أحكام النحو ليدعم رأيه فيقول : (ولهذا عيب على من حدّ المبتدأ بأنه المتجرد من العوامل اللفظية غير الزائدة، فإن المبتدأ لم يكن له عامل يجرد عنه . وكذلك قولهم : ما عري من عامل لفظي، ثم يرد عليه أن الخلوص من هذه الأمور عبارة عن عدمها، فهو تعريف بالأمور العدمية، وإنما يكون التعريف بالذاتيات أو الخواص الوجودية، فكان ينبغي أن يقال : الفصاحة التئام الحروف...) [٢٩٦] .

وفي فصاحة المتكلم إشكالية أخرى كبرى، إذ حدّها المصنف بأنها (ملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح)[٢٩٧].لكن ماذا لو تكلم متكلم بكلام فصيح، وهو نفسه – أي المتكلم ـ ليس فصيحاً؟ فيثور الخلاف وتستثار

الأفكار ؛ يبرز شعور بعضهم بعدم الرضا عن افتراع فصاحة للمتكلم من موضوع الفصاحة أصلاً ؛ (فذِكر فصاحتَي الكلام والكلمة يغني عن ذكر فصاحة المتكلم إغناء حدّ العلم عن حدّ العالِم) [٢٩٨]. لكن فئة أخرى لا ترى الأمر كذلك، فتصر على الخوض في فصاحة المتكلم متسلحة بالحجج بأنّا (لم نحدّ الفصيح، بل حددنا فصاحته، وفصاحته غير فصاحة كلامه وكلمته).[٢٩٩]

ثم يفطنون إلى ما اعترى بعض حدودهم من وهن منطقي إذ (قد يورد على المصنف أمور، أحدها : أنه ذكر لفظ الفصيح في حدّ فصاحة المتكلم، والحدّ لا يذكر فيه شيء مشتق من المحدود)[٣٠٠]، فيسارعون إلى سد الذرائع قائلين : (لعل جوابه أن "فصيحاً " المذكور في حدّ فصاحة المتكلم مشتق من فصاحة الكلام التي عُرفت، لا من فصاحة المتكلم التي هو يحدها . والثاني أنه يحد فصاحة المتكلم، والملكة لا تتوقف على التكلم بل هو يقصد حدها سواء أنطق أم لا . والثالث ......) [٣٠١]. ولكل من السعد والمغربي تعليقات أيضاً .

لا جرم . إنّ هذه رياضة عقلية منطقية راقية، لكن : أي فائدة فيها للبلاغة؟ وهل تساعد في تحقيق أهدافها، وخدمة وظائفها ؟ .

ويلفت النظر أن السبكي، بعد هذا الطواف كله، كأن قد أحسّ أنه لم يعطِ المسألة حقها، فينبه قائلا : (اعلم أن أكثر الناس ذكر الفصاحة حيث كانت حداً واحداً، وذكروا حدوداً كثيرة ترجع إلى ما ذكره المصنف في فصاحة المتكلم، لم أرَ التطويل بذكرها).[٣٠٢]

ثم ينتقل الخلاف، بالحماسة نفسها، إلى الحديث عن البلاغة[٣٠٣] :

يخوض المغربي طويلاً في شأن مطابقة الكلام لمقتضى الحال وهو صُلب تعريف البلاغة، ويغلب على حديثه الالتفات إلى تفاصيل الجزئية والكلية في أمور مطابقة الحال[٣٠٤]، ثم يقف بأناة على مقامات الكلام[٣٠٥]. بينما يرى السبكي أن

تعريف القزويني للبلاغة غني عن الشرح[٣٠٦]، لكنه يروغ على تعريفات السابقين للبلاغة فينتقدها، ويراها رسوماً واهية، ويستعرضها مستقصياً مستكثراً في عدّة صفحات.[٣٠٧]

ثم يختم معلقاً : (والظاهر أن أكثر هذه العبارات إنما قصدوا بها ذكر أوصاف للبلاغة، ولم يقصدوا حقيقة الحدّ ولا الرسم)[٣٠٨].وتلك مقولة بعض سابقيه الذين تصدّى لهم للرد عليهم.

وينشغل المغربي في توحيد مصطلحي مقتضى الحال والاعتبار المناسب مستنداً على تحليلات نحوية، وتعليلات منطقية تحتاج إلى فضل الصبر والفضيلة للتحمل والتأمل .[٣٠٩]

وتعود إلى الظهور من جديد جدليّة العلاقة بين الفصاحة والبلاغة، فقد نوقشت عند الحديث عن الفصاحة، وها هي تناقش ثانية عند الحديث عن البلاغة.

يقول السبكي : (وقد اختلف الناس في البلاغة والفصاحة: من صفات اللفظ أو المعنى ؟ وهل هما مترادفان أو لا؟).[٣١٠] فيجد في المنطق اليوناني جواباً، فينقل عن أفلاطون أنه قال : (الفصاحة لا تكون إلا لموجود والبلاغة تكون لموجود مفرد) .[٣١١]

ويُستحضر عبد القاهر الجرجاني إلى هذا المقام، فيشير المغربي إلى ما يُتَوَهَّم من التناقض في كلامه؛ (لأنه تارة يصف البلاغة باللفظ، وتارة يصف بها المعنى، وتارة ينفيها عن اللفظ، وتارة ينفيها عن المعنى).[٣١٢]

وقد سبقت الإشارة في هذا البحث إلى أن بعض المتعقبين لكلام عبد القاهر الجرجاني يظنون فيه تناقضاً رغم أنه ظل يبدي في هذا الأمر ويعيد، إلى أن تركه على وضوح لا حاجة فيه لمستزيد.

وقد دافع المغربي عن عبد القاهر مستخدماً بعض كلامه قائلاً: (فقول الشيخ عبد القاهر إن البلاغة ترجع إلى المعنى لا إلى اللفظ، يعني إلى المعنى الثاني الخاص، لا إلى اللفظ باعتبار إفادته المعنى الأول المطروح في الطريق.وقوله ترجع إلى اللفظ يعني باعتبار إفادته المعنى الخاص.فلا تناقض في كلامه)[٣١٣].

وكان السبكي قد عرض آراء مختلفة في هذا الأمر، وأشار إلى رأي عبد القاهر أيضاً، لكنه كان أكثر اختصاراً ووضوحاً، إذ قال :

إن المصنف (نقل في الإيضاح عن عبد القاهر كلاماً مختلف الظاهر، وإن حاصل مجموع كلامه أن الفصاحة ليست من صفات المفردات من غير اعتبار التركيب).[٣١٤]

ثم بدا له أن يخلص سريعاً من هذا المعترك، فاستعان بما كان قد عاب فيه سابقيه من نعوت انفعالية عامة، فاستعاذ بقولة للبغدادي تغلق باب النقاش: (وما أحسن عبارة عبد اللطيف البغدادي حيث قال في قوانين البلاغة: إن البلاغة شيء يبتدئ من المعنى وينتهي إلى اللفظ، والفصاحة شيء يبتدئ من اللفظ وينتهي إلى المعنى، فإن فيها جمعاً بين ما افترق من كلام الناس، وهي الحقّ إن شاء الله تعالى).[٣١٥]

ويقف الشرّاح مطولاً على قول القزويني :(للبلاغة طرفان: أعلى وهو حدّ الإعجاز وما يقرب منه...).[٣١٦] وهذه الفكرة وردت عند السكّاكي نقلاً عن بعض سابقيه ، ولم تكن تثير إشكالاً، لكنّ عبارة القزويني الملبسة أثارت إشكالية كبرى:

فقد يفهم من ظاهر هذه العبارة أن للبلاغة طرفين : أعلى : وهو حدّ الإعجاز وما يقرب منه؛ أي ما يقرب من حدّ الإعجاز، وبذلك يكون الإعجاز وما يقرب منه ضمن الطرف الأعلى معاً.

وقد يفهم غير ذلك عند افتراض تقديم وتأخير في العبارة، فيعاد ترتيبها لتصبح :

أعلى وما يقرب منه، وهو حدّ الإعجاز، فيختلف المراد.لذلك بادر السبكي إلى الاحتراز بالقول :

(ظاهره أن حدّ الإعجاز لا يتفاوت، وليس كذلك ، بل هو لا نهاية له، وما وقع في كلام بعض شرّاح المفتاح مما يوهم خلاف ذلك لا عبرة به. ثم يرد عليه أن ما يقرب من حدّ الإعجاز ليس أعلى ؛ لنقصانه عن حدّ الإعجاز).[٣١٧]

وهكذا يخيل إلينا ونحن نقرأ تعليقاتهم وتحفظاتهم على عبارات القزويني، أنهم منكبّون على نص مقدّس، قد توفروا عليه ، وأفرغوا له وافر جهدهم، يستظهرون، ويستبطنون، ويستقرئون، ويستنبطون.

ولعلّ أصل الخلاف في الأمر لا يخرج عن كونه مجرّد تركيب عفوي فيه تقديم وتأخير غير مقصود.

ثم إن هذه العبارة الملبسة كانت واضحة سلسة في الكتاب الأصلي " مفتاح السكاكي" ، الذي ذكر طرفي البلاغة، وأوضح المقصود منهما بعبارة ظاهرة مباشرة، فالبلاغة عنده تبتدئ من الحدّ الأدنى " الطرف الأسفل "، (ثم تأخذ في التزايد متصاعدة إلى أن تبلغ حدّ الإعجاز وهو الطرف الأعلى وما يقرب منه).[٣١٨] فهل بعد هذا حاجة إلى إبانة أو إيضاح؟.

أما التعريفات التي وضعها القزويني لعلوم المعاني البيان والبديع، فرغم أنه أقام معظمها على أنقاض تعريفات السكاكي، ورغم اختصارها الشديد، فإننا لا نجد من الشرّاح إضافات تجعل من هذه التعريفات أكثر وضوحاً، وأكبر قدرة على القيام بوظائفها .

على العكس من ذلك، نجد عندهم انعطافاً إلى ثنيات الطرق، تشغل القارئ في قضايا بعيدة عند الهدف: فهم ينشغلون كثيراً في تعليل تقديم علم بلاغي، أو تأخير آخر، ويستنفدون في هذا السبيل جهوداً ضخمة، ويثيرون عجاج قضية إثر قضية دون قيمة فعلية :

فالسعد يرى أن المعاني تقدم على البيان؛لأن المعاني من البيان بمنزلة المفرد من المركب[٣١٩]، والمغربي يرى عكس ذلك[٣٢٠].

والسبكي يرى أن المعاني قدم على البيان والبديع لأنه منهما كالأصل للفرع[٣٢١].

ويلتفت السعد إلى السر في تقديم البيان على البديع : (قدمه على البديع للاحتياج إليه في نفس البلاغة، وتعلق البديع بالتوابع) .[٣٢٢]

أما السبكي والمغربي فقد اعتلقا بعلة تأخير البيان على المعاني[٣٢٣]، فطفقا يلاحقان أفكاراً مثل : الجزئية والكلية، والمفرد المركب، والعموم والخصوص....إلخ . وهذا أسلم السبكي إلى مواجهة تعريف القزويني بالتتبع العقلي المنطقي وكانت النتيجة تسعة تنبيهات، بسبرها، والصبر عليها لا نكاد نجد فيها شيئاً عملياً مجدياً .

يعرّف القزويني علم البيان : (هو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في الدلالة عليه...)[٣٢٤] فتنهال تنبيهات السبكي، ويستعرض آراء غيره ناقضاً أو ناقداً أو موافقاً أو مناقشاً أو عارضاً أو معترضاً [٣٢٥]:

وتتزاحم الآراء عن تقييد التعريف بالكلام العربي، وهل يمنع التعريف من إيراد المعنى الركيك باللفظ الركيك ؟ وهل يقع طيه علم الإعراب ؟ وهل البيان من المعاني بمنزلة الأخص المركب أم العكس؟ وما معنى قول السكاكي : علم البيان شعبة من علم المعاني ؟ وهل البلاغة في وضوح الدلالة أم العكس ؟ وهل يمكن إيراد المعنى

الواحد بالطرق المختلفة ؟ وهل يحتاج إلى معرفة علم البيان من يعرف أصلاً إيراد المعنى الواحد بالطرق المختلفة؟وهل الأولى أن يقال : في وضوح الطرق أو في إيضاح الطرق.... ؟

وهكذا نجد تعريفاً من بضع كلمات يثير ما لا نهاية له من القضايا والإشكالات، بل إن الأمر يطال الأساسيات والأبجديات فلا نطمئن إلى وجود شيء متفق عليه :

كان القزويني، مثلاً، قد اعترض على السكاكي في تعريفه لعلم المعاني يأنه تتبع......، وبيّن أن التتبع ليس علماً. فحرص على تصدير التعريف بكلمة علم، فأورد السبكي اعتراضاً حتى على كلمة علم، قال : (وفيه نظر، بل الأولى أن يجعل بمعنى المعلوم، وهي القواعد لدلالة كلامة، وكلام غيره عليه) .(٣٢٦)

ويرد التحفظ ذاته أيضاً عند الوقوف على تعريف علم البديع، فالمغربي يشرح معنى علم البديع بأنه (العلم المعلوم إضافته إلى البديع) .(٣٢٧)

والسبكي يعترض على كلمة علم كما فعل في تعريف علم البيان(٣٢٨) . بل هو يتحفظ على إطلاق لفظ " بديع " أصلاً على هذا العلم، لأن البديع من أسماء الله تعالى .(٣٢٩)

وتستوقفهم كلمة " يعرف "الواردة في التعريف، فيرد الشرح والتعليق : (وإنما قال يعرف، ولم يقل يعلم؛ لأن الأحوال التي ينسب العرفان هنا إليها جزئية، والعرفان تختص به الجزئيات لكونها تشبه البسيط، والعلم يشمل الكليات لشبهها بالمركبات ....) .(٣٣٠)

وتكاد تتزعزع تقسيمات علوم البلاغة من أساسها في بعض حديثهم عن جرثومة البحث البلاغي وهي مطابقة الحال التي بُعثت من جديد في تعريف القزويني، لأن بعضهم رأى أن هذا القيد يخرج علم البيان والبديع، بينما رأى آخرون

غير ذلك؛ (لأن المصنف فسّر مقتضى الحال بالاعتبار المناسب، ولا شك أن العلوم الثلاثة داخلة في ذلك)[٣٣١] . ويستقوي السبكي بعبارة القزويني لينصره، فيرى أن البيان والبديع (يخرجهما قوله " بها يطابق " ، فإنه قدم المعمول، فأفاده الاختصاص، والأحوال التي لا يطابق مقتضى الحال إلا بها هي التي في علم المعاني . وما في العلمين بعده يحصل المطابقة به وبدونه) .[٣٣٢]

لكن حديثه عن علم البديع يعود فيخلط الأمور من جديد، فالبديع (يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة، ووضوح الدلالة) [٣٣٣]، كما عرّفه القزويني .

فيقف السبكي على عبارة القزويني "بعد رعاية تطبيقه" عارضاً الاحتمالات:

(يحتمل أن يراد بعد معرفة رعاية تطبيقه ووضوح الدلالة، ويكون المراد هو قواعد يعرف بها وجوه التحسين ووجوه التطبيق والوضوح . ومعرفة التطبيق والوضوح سابقان على معرفة التحسين، فيكون المعاني والبيان جزأين للبديع .

ويحتمل أن يراد قواعد يعرف بها، بعد معرفة التطبيق والوضوح، وجوهَ التحسين، فلا يكون المعاني والبيان جزأين للبديع، بل مقدمتين له) .[٣٣٤]

ويضع السبكي أصبعه على أصل الداء المتمثل في التواء عبارة المصنف، فيقول : (وفي استخراجه من منطوق عبارة المصنف عسر) .[٣٣٥]

هذا العسر المشكو منه هو الحريّ بالتخلص منه، فقد قذف الدرس البلاغي في دوامة، لا نكاد فيها نلمس الغرض الذي يعنينا حتى ترمي بنا بعيداً وتقصينا، حتى نكاد ننسى ضالتنا التي ننشدها ونبحث عنها. إننا نريد مقاربة عملية نعرف بها كيف نتذوق كلاماً، ونفضله على ما سواه، ولا نختلف بشأنه، مقاربة تغني ذائقتنا، وترشدنا إلى درب الإبداع الأدبي، وترتقي بمستوانا القولي الفني، لكننا نجد أنفسنا غارقين في حدود منطقية، واستدراكات، وتحفظات، واحترازات، ونظرات تقع

على نظرات، تجعلنا نرضى من الغنيمة بالإياب، الإياب إلى عهد البلاغة الغضة بردائها العذي، وعودها الطري، حيث كانت أفكاراً سيالة فيها قليل من العلم، وكثير من الذوق، فطالما أن كل هذه الصرامة العلمية لم تصل بنا إلى تعريفات جامعة مقنعة، واستمر الخلاف فيها، واستمرت المقاولات بشأنها، فلعل العود إلى العهد الأول يكون أحمد عاقبة وأقل ضرراً، لكن لا بد من تنقيته من شوائبه، ولقط الأفكار المفيدة غير الخلافية، لتتشكل منها منظومة معيارية مفصلة، تكون أداة صادقة للحكم على الكلام، ومحاكاة البليغ منه .

الخاتمة

وبعد هذا الحصاد، يمكن، باطمئنان، أن نقول ما يلي :

– إن علماء البلاغة، المتقدمين منهم والمتأخرين، يدركون بدقة أهمية علم البلاغة، وأن هذا العلم إضافة إلى أهميته العظمى في النقد الأدبي، يتصدى لأخطر قضية دينية أدبية هي قضية الإعجاز القرآني، وهذا يستدعي بالضرورة تعريفاً دقيقاً للبلاغة، يتفق عليه، ويعتمد مرجعاً، ومعياراً للحكم على النتاج الأدبي، وميز جيده من رديئه .

وإذا كان التعريف المتفق عليه غير موجود فكيف نطمئن إلى الحكم النقدي؟.

– غابت التعريفات عن الإشارات البلاغية الأولى التي ظهرت في ثنايا التفسير والعلوم اللغوية، لكن بين يدي الجاحظ طغى سيل من التعريفات والصفات والشروط والمصطلحات والأقوال البلاغية، دارت طويلاً في كتب اللاحقين، وعليها وحولها دار معظم الدرس البلاغي .

– إن التراث البلاغي ينوء بالاعتراضات والاستدراكات، فلا يكاد لاحق يسلّم إلا بقليل مما أورده السابق، وكلّ يدعي أن رأيه الأحق، وقوله الأصدق والأدق.

– إن المتأخرين، وبخاصة شرّاح التلخيص، أهالوا على تعريفات البلاغة، وما تفرّع منها، ركاماً من الاعتراضات والاستعراضات، إن تم تنحيته جانباً ستظهر تحته البذور الأولى لجزئيات تعريف البلاغة التي ترددت في كتب المتقدمين، فالأمر لا يخرج عن كون البلاغة إيصالاً للمعنى " إيضاحاً للدلالة " بلفظ فصيح، ووجه من التزيين والتحسين، ومراعاة لمقتضيات المقام .

– إن "مراعاة المقال للمقام"، التي أصبحت حجر الزاوية في التعريف الأخير للبلاغة، ترتدّ بعد طول سفر إلى صاحبها الشرعي الأول : بشر بن المعتمر .

– إن التعريف البلاغي الواقعي، يقع بين طرفين متباعدين :

طرف فيه نثار من التعريفات، والصفات، والشروط، يفتقر إلى التنظيم والتبويب والترتيب، والتنقيح لعجمه، واجتباء أجوده وأفيده، وطرف فيه تعريفات منظمة مبوبة لكنها تحتاج إلى إنقاذها مما غرقت فيه من الحدود والقيود المفرطة في العقلية، والأنظار المنطقية، التي غام فيها الحق واستعصى الفهم، وغابت الفائدة المرجوة، أو كادت .

المصادر والمراجع

أهم المصادر:

- الآمدي، الحسن بن بشر، (٣٧٠هـ)، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٠.
- ابن الأثير، نصر الله بن محمد، (٦٣٧هـ)، المثل السائر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا وبيروت، ١٩٩٠.
- الأخفش، سعيد بن مسعدة، (٢١٥هـ)، معاني القرآن، تحقيق فائز الغول، ط٢، ١٩٨١.
- الأسد أبادي، القاضي عبد الجبار، (٤١٥هـ)، المغني في أبواب التوحيد والعدل، ج١٦ في إعجاز القرآن، قوّم نصه أمين الخولي، دار الكتب، القاهرة، ١٩٦٠.
- الباقلاني، محمد بن الطيب، (٤٠٣هـ)، إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ط٣، (د.ت).
- البغدادي، محمد بن حيدر، (٥١٧هـ)، قانون البلاغة، تحقيق محسن غياض، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٩ .
- ثعلب، أحمد بن يحيى، (٢٩١هـ)، قواعد الشعر، تحقيق رمضان عبدالتواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٥.
- الجاحظ، عمرو بن بحر، (٢٥٥هـ)، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، (د.ت).
- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، (٤٧١هـ)، أسرار البلاغة، تعليق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة ودار المدني، جدة، ١٩٩١.
- الجرجاني، دلائل الإعجاز، تعليق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة ودار المدني، جدة، ط٣، ١٩٩٣.
- الجرجاني، الرسالة الشافية في الإعجاز، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٦٨.

- الجرجاني، علي بن عبد العزيز، (٣٩٢هـ)، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، صيدا وبيروت، (د.ت).
- ابن جني، عثمان بن جني، (٣٩٢هـ)، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، ط٢، (د.ت).
- الخطابي، حمد بن محمد، (٣٨٨هـ)، بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٦٨.
- ابن سنان الخفاجي، عبد الله بن محمد، (٤٦٦هـ)، سر الفصاحة، تحقيق علي فودة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٤.
- الرازي، محمد بن عمر، (٦٠٦هـ)، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٥ .
- الرماني، علي بن عيسى، (٣٨٦هـ)، النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٦٨ .
- الزمخشري، محمود بن عمر، (٥٣٨هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧٧ .
- السبكي، أحمد بن علي، (٧٧٣هـ)، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، ضمن كتاب شروح التلخيص، جمع فرج الله زكي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٩٣٧ .
- السعد التفتازاني، مسعود بن عمر، (٧٩١هـ)، الشرح المختصر، ضمن كتاب شروح التلخيص، جمع فرج الله زكي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٩٣٧ .
- السكاكي، يوسف بن محمد، (٦٢٦هـ)، مفتاح العلوم، تحقيق عبد الحميد الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠ .

- سيبويه، عمرو بن عثمان، (١٨٠هـ)، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٩٨٨ .
- ابن طباطبا، محمد بن أحمد، (٣٢٢هـ)، عيار الشعر، تحقيق عبد العزيز بن ناصر، مكتبة الخانجي، القاهرة، (د.ت) .
- أبو عبيدة، معمر بن المثنى، (٢١٠هـ)، مجاز القرآن، تعليق محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة، (د.ت) .
- العسكري، الحسن بن عبدالله، (٣٩٥هـ)، الصناعتين، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨١ .
- العلوي، يحيى بن حمزة، (٧٤٩هـ)، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وحقائق الإعجاز، دار الكتب العلمية، ١٩٨٠ .
- ابن فارس، أحمد بن فارس، (٣٩٥هـ)، الصاحبي في فقه اللغة، تحقيق مصطفى الشويمي، مؤسسة أ.بدران للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٤ .
- الفراء، يحيى بن زياد، (٢٠٧هـ)، معاني القرآن، عالم الكتب، بيروت، ط٢، ١٩٨٠ .
- ابن قتيبة، عبدالله بن محمد، (٢٧٦هـ)، أدب الكاتب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط٤، ١٩٦٣ .
- قدامة بن جعفر، (٣٣٧هـ)، نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٩٣٨ .
- قدامة بن جعفر، نقد النثر، المنسوب خطأ إلى قدامة، تحقيق طه حسين، وعبد الحميد العبادي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٣ .
- القزويني، محمد بن عبد الرحمن، (٧٣٩هـ)، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق محمد السعدي، ومحمد خفاجي، وعبد العزيز شرف، دار الكتاب المصري، القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٩٩ .
- القزويني، التلخيص في علوم البلاغة، شرح عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، (د.ت) .

- القيرواني، الحسن بن رشيق، (٤٦٣هـ)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٣٤ .
- المبرد، محمد بن يزيد، (٢٨٥هـ)، البلاغة، تحقيق رمضان عبد التواب، دار مطابع الشعب، القاهرة، ١٩٦٥ .
- المرزباني، محمد بن عمران، (٣٨٤هـ)، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، وقف على طبعه واستخرج فهارسه محب الدين بن الخطيب، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، ط٢، ١٣٨٥هـ .
- ابن المعتز، عبدالله بن المعتز، (٢٩٦هـ)، البديع، اعتنى بنشره أغناطيوس كراتشكوفسكي، دارالحكمة، دمشق، (د.ت) .
- المغربي، ابن يعقوب، (١١١٠هـ)، مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، ضمن كتاب شروح التلخيص، جمع فرج الله زكي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر، ١٩٣٧ .
- ابن وهب الكاتب، اسحاق بن إبراهيم، (٣٣٥هـ)، البرهان في وجوه البيان، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، ساعدت جامعة بغداد على نشره، ١٩٦٧ .

أهم المراجع:

- أحمد حسن الزيات، دفاع عن البلاغة، عالم الكتب، ط٢، ١٩٦٧ .
- أحمد الشايب، الأسلوب، مكتبة النهضة المصرية، ط٦، ١٩٦٦ .
- أحمد مصطفى المراغي، تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها، شركة البابي الحلبي، مصر، ١٩٥٠.
- أحمد مطلوب، أساليب بلاغية:الفصاحة-البلاغة-المعاني، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٨٠.
-أحمد مطلوب، فنون بلاغية، البيان-البديع، دار البحوث العلمية، الكويت، ١٩٧٥.
- أحمد مطلوب، مصطلحات بلاغية، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٧٢ .

- أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨٣، ١٩٨٦، ١٩٨٧ .
- أمين الخولي، فنّ القول، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٧ .
- أمين الخولي، مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، دار المعرفة، ١٩٦١ .
- بدوي طبانة، البيان العربي، مكتبة الظانجلو المصرية، ط٤، ١٩٦٨ .
- بكري شيخ أمين، البلاغة العربية في ثوبها الجديد(علم المعاني)، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٩٢.
- حسين المرصفي، الوسيلة الأدبية للعلوم العربية، مطبعة المدارس الملكية، القاهرة، ١٣٩٢هـ.
- رجاء العيد، في البلاغة العربية، مكتبة الطليعة، أسيوط، (د.ت) .
- سعد مصلوح، في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية، آفاق جديدة، لجنة التأليف والتعريب والنشر، جامعة الكويت، ٢٠٠٣ .
- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، مصر، ط٣، (د.ت) .
- عبد القادر حسين، أثر النحاة في البحث البلاغي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، (د.ت) .
- عبد القادر حسين، المختصر في تاريخ البلاغة، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٢ .
- علي عشري زايد، البلاغة العربية:تاريخها-مصادرها-مناهجها، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٨٢ .
- مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، دار الفكر، (د.ت) .
- محمد أبوموسى، خصائص التراكيب، دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٩٨٠ .

الحواشي

(١) طاف البحث بالعديد من المؤلفات البلاغية الحديثة، نظر فيها، واستضاء بأنظارها، ولا بد من الإشارة إلى فضلها في توسيع آفاقه، وترسيخ قناعته بأنه انفرد عنها في صلب موضوعه، وغرضه، ومنهجه. من هذه المؤلفات ما يتعلق بالتأريخ البلاغي، ومنها ما له علاقة بالأسلوبية، وقد ذكرت جميع هذه الكتب ضمن قائمة أهم المراجع في البحث .

(٢) أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨٣، ١٩٨٦، ١٩٨٧ .

(٣) أحمد مطلوب، فنون بلاغية، البيان-البديع، دار البحوث العلمية، الكويت، ١٩٧٥ .

(٤) أحمد مطلوب، أساليب بلاغية:الفصاحة-البلاغة-المعاني، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٨٠ .

(٥) أحمد مطلوب، مصطلحات بلاغية، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٧٢ .

(٦) نفسه، ص٧، وانظر ص٨ أيضاً .

(٧) أبو عبيدة، معمر بن المثنى، (٢١٠هـ)، مجاز القرآن، تعليق محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة، (د.ت) .

(٨) الجاحظ، عمرو بن بحر، (٢٥٥هـ)، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، (د.ت) .

(٩) ابن المعتز، عبدالله بن المعتز، (٢٩٦هـ)، البديع، اعتنى بنشره أغناطيوس كراتشكوفسكي، دار الحكمة، دمشق، (د.ت) .

(١٠) ابن طباطبا، محمد بن أحمد، (٣٢٢هـ)، عيار الشعر، تحقيق عبد العزيز بن ناصر، مكتبة الخانجي، القاهرة، (د.ت) .

(١١) قدامة بن جعفر، (٣٣٧هـ)، نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٩٣٨ .

(١٢) المرزباني، محمد بن عمران، (٣٨٤هـ)، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، وقف على طبعه واستخرج فهرسه محب الدين بن الخطيب، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، ط٢، ١٣٨٥هـ .

(١٣) الآمدي، الحسن بن بشر، (٣٧٠هـ)، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٠ .

(١٤) الجرجاني، علي بن عبد العزيز، (٣٩٢هـ)، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، صيدا وبيروت، (د.ت) .

(١٥) العسكري، الحسن بن عبدالله، (٣٩٥هـ)، الصناعتين، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨١ ، ص٩.

(١٦) نفسه، ص١٠ .

(١٧) نفسه، ص١٠ .

(١٨) الباقلاني، محمد بن الطيب، (٤٠٣هـ)، إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ط٣، (د.ت) ، ص٤.
(١٩) نفسه، ص٤ .
(٢٠) ابن سنان الخفاجي، عبدالله بن محمد، (٤٦٦هـ)، سر الفصاحة، تحقيق علي فودة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، ١٩٩٤ ص٣، ٤ .
(٢١) الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، (٤٧١هـ)، دلائل الإعجاز، تعليق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ودار المدني، جدة، ط٣، ١٩٩٣ ، ص٥.
(٢٢) نفسه، ص٥، ٦ .
(٢٣) الزمخشري، محمود بن عمر، (٥٣٨هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧٧ ، ١٦/١.
(٢٤) السكاكي، يوسف بن محمد، (٦٢٦هـ)، مفتاح العلوم، تحقيق عبد الحميد الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت٢٠٠٠ ، ص٢٤٩.
(٢٥) ابن الأثير، نصر الله بن محمد، (٦٣٧هـ)، المثل السائر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا وبيروت، ١٩٩٠، ٣٩٢/٢.
(٢٦) القزويني، محمد بن عبد الرحمن، (٧٣٩هـ)، التلخيص في علوم البلاغة، شرح عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، (د.ت)، ص٢٢.
(٢٧) ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، ص٥٦ .
(٢٨) سيبويه، عمرو بن عثمان، (١٨٠هـ)، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٩٨٨.
ينظر، مثلاً، باب المسند إليه٢٣/١، وباب اللفظ للمعاني٢٤/١، وباب ما يكون في اللفظ من الأعراض٢٤/١، وباب الاستقامة من الكلام والإحالة٢٥/١، وباب ما يحتمل الشعر٢٦/١ .
(٢٩) الفراء، يحيى بن زياد، (٢٠٧هـ)، معاني القرآن، عالم الكتب، بيروت، ط٢، ١٩٨٠ .
ينظر أمثلة: ١٤/١، ١٥ ، ١٥٣، ٦٨/٢ـــ، ٩١، ١٩٥، ٤١١...
(٣٠) الأخفش، سعيد بن مسعدة، (٢١٥هـ)، معاني القرآن، تحقيق فائز الغول، ط٢، ١٩٨٠ .
ينظر أمثلة : ٤٩، ٧٥، ٧٧، ٧٩، ٨٨، ٣٠١، ٣٤٩، ٤٣٠، ٤٤٩، ٤٨٠، ٥٣٤، ٥٣٥...
(٣١) المبرد، محمد بن يزيد، (٢٨٥هـ)، البلاغة، تحقيق رمضان عبد التواب، دار مطابع الشعب، القاهرة، ١٩٦٥ .
(٣٢) ثعلب، أحمد بن يحيى، (٢٩١هـ)، قواعد الشعر، تحقيق رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٥ .
(٣٣) ابن جني، عثمان بن جني، (٣٩٢هـ)، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، ط٢، (د.ت) .
ينظر، مثلاً، باب في شجاعة العربية، ٣٦٠/٢ـــ.وتحدث فيه عن أساليب تعدّ في صميم البلاغة، كالحذف والتقديم والتأخير... .
(٣٤) ابن قتيبة، عبد الله بن محمد، (٢٧٦هـ)، أدب الكاتب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط٤، ١٩٦٣ ، ص٤.

(٣٥) ابن فارس، أحمد بن فارس، (٣٩٥هـ)، الصاحبي في فقه اللغة، تحقيق مصطفى الشويمي، مؤسسة أ.بدران للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٤، ص١٧٩-.
(٣٦) الجاحظ، البيان والتبيين، ١/٥، ٧، ١٤، ٥٥... .
(٣٧) نفسه، ١/٧٥.
(٣٨) نفسه، ١/٧٥.
(٣٩) نفسه، ١/١٦٢.
(٤٠) نفسه، ١/١٦٢ .
(٤١) نفسه، ١/٧٦ .
(٤٢) نفسه، ١/٨٨ــ .
(٤٣) نفسه، ١/١٠٤، ١٠٥، ١١٦، ١٣٠، ١٣٨، ١٣٩...
(٤٤) نفسه، ١/٩٢ــ .
(٤٥) نفسه، ١/١٣٥ــ .
(٤٦) نفسه، ١/٨٧ .
(٤٧) نفسه، ١/١٠٦ .
(٤٨) نفسه، ١/٦٧ .
(٤٩) نفسه، ١/٥، ١٣، ١٤
(٥٠) نفسه، ١/٧ــ، مواضع منثورة .
(٥١) نفسه، ١/٥١، ٢/٥٥، ٥٦ .
(٥٢) نفسه، ١/٧٨، ١٠٣، ١١٥ .
(٥٣) ابن المعتز، البديع، ص٣ .
(٥٤) ابن وهب الكاتب، اسحاق بن إبراهيم، (٣٣٥هـ)، البرهان في وجوه البيان، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، ساعدت جامعة بغداد على نشره، ١٩٦٧ ، ص٥١، ٥٢.
(٥٥) نفسه، ص١٦٣ .
(٥٦) قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص١٥ .
(٥٧) نفسه، ص١٦ .
(٥٨) الخطابي، حمد بن محمد، (٣٨٨هـ)، بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٦٨ ، ص٢١.
(٥٩) العسكري، الصناعتين، ص١٣ .
(٦٠) نفسه، ص١٣ .
(٦١) نفسه، ص٦٥ .
(٦٢) نفسه، ص٦٥ .
(٦٣) نفسه، ص٥٢٥ .
(٦٤) ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، ص٥٦ .
(٦٥) نفسه، ص٥٩، ٦٠ .
(٦٦) نفسه، ص٦٠ .

(٦٧) نفسه، ص٥ .
(٦٨) الباقلاني، إعجاز القرآن، ص١٢٧ .
(٦٩) نفسه، ص٣٠٠ .
(٧٠) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٦٣، وقارن بالأسد آبادي، القاضي عبد الجبار، (٤١٥هـ)، المغني في أبواب التوحيد والعدل، ج١٦ في إعجاز القرآن، قوّم نصه أمين الخولي، دار الكتب، القاهرة، ١٩٦٠ ، ص١٩٩.
(٧١) نفسه، ص١٩٨ .
(٧٢) نفسه، ص٣٨٥ .
(٧٣) ابن الأثير، المثل السائر، ٨٠/١ .
(٧٤) نفسه، ٨٠/١ .
(٧٥) نفسه، ٨٠/١ .
(٧٦) نفسه، ٨٠/١ .
(٧٧) نفسه، ٢٣/١ .
(٧٨) نفسه، ٢٣/١ .
(٧٩) نفسه، ٢٥/١ .
(٨٠) الرازي، محمد بن عمر، (٦٠٦هـ)، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٥، ص٧٣، ٧٤.
(٨١) نفسه، ص٧٥ .
(٨٢) نفسه، ص٧٦ .
(٨٣) السكاكي، المفتاح، ص٣٩ .
(٨٤) نفسه، ص٦١٤ .
(٨٥) القزويني، التلخيص في علوم البلاغة، ص٢٢ .
(٨٦) القزويني،الإيضاح في علوم البلاغة،تحقيق محمد السعدي،ومحمد خفاجي،وعبدالعزيز شرف، دار الكتاب المصري،القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٩٩، ص٧٦.
(٨٧) العلوي، يحيى بن حمزة، (٧٤٩هـ)، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وحقائق الإعجاز، دار الكتب العلمية، ١٩٨٠ ، ٨/١.
(٨٨) نفسه، ٩/١ .
(٨٩) السبكي، أحمد بن علي، (٧٧٣هـ)، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، ضمن كتاب شروح التلخيص، جمع فرج الله زكي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٩٣٧ ، ٥/١.
(٩٠) نفسه، ٦/١ .
(٩١) نفسه، ٢٩/١ .
(٩٢) نفسه، ١٣٤/١ .
(٩٣) نفسه، ١٣٤/١ .
(٩٤) نفسه، ١٢٣/١ .

(٩٥) الرماني، علي بن عيسى، (٣٨٦هـ)، النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٦٨، ص٧٥.
(٩٦) نفسه، ص٧٥ .
(٩٧) نفسه، ص٧٥ .
(٩٨) نفسه، ص٧٦ .
(٩٩) نفسه، ص١٠٧ .
(١٠٠) نفسه، ص١٠٦ .
(١٠١) نفسه، ص١٠٦ .
(١٠٢) الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ص٦٦ .
(١٠٣) نفسه، ص٢٩ .
(١٠٤) نفسه، ص١٠٤ .
(١٠٥) نفسه، ص٢٩ .
(١٠٦) ابن معتز، البديع، ص٦ .
(١٠٧) نفسه، ص٣٨ .
(١٠٨) قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص٢٨ .
(١٠٩) نفسه، ص٢٨ــــ .
(١١٠) ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، ص١٦٣ .
(١١١) نفسه، ص١٦٣ .
(١١٢) نفسه، ص٧٣ .
(١١٣) نفسه، ص١٠١ .
(١١٤) نفسه، ص١١١ .
(١١٥) نفسه، ص٣١٣ .
(١١٦) نفسه، ص٦٤ .
(١١٧) نفسه، ص٢٠٨ .
(١١٨) نفسه، ص٢٠٦ .
(١١٩) نفسه، ص٣٥٠ .
(١٢٠) نفسه، ص٢٥٣ .
(١٢١) نفسه، ص٢٥٠ .
(١٢٢) نفسه، ص٢٥٦ .
(١٢٣) نفسه، ص٢٤٩ .
* أبو أيوب : هو سليمان بن وهب جدّ المؤلف على أغلب الظن كما يرى محقق الكتاب.ينظر ص ٢٦ .
(١٢٤) نفسه، ص٣٥١ .
(١٢٥) العسكري، الصناعتين، ص١٥ .
(١٢٦) نفسه، ص١٦ .

(١٢٧) نفسه، ص١٩ .
(١٢٨) نفسه، ص١٩ .
(١٢٩) نفسه، ص١٩ .
(١٣٠) نفسه، ص٢٣ .
(١٣١) نفسه، ص١٥ .
(١٣٢) نفسه، ص١٦ .
(١٣٣) نفسه، ص١٧ .
(١٣٤) نفسه، ص١٧ .
(١٣٥) نفسه، ص١٧ .
(١٣٦) نفسه، ص١٧ .
(١٣٧) نفسه، ص٩ .
(١٣٨) نفسه، ص٩ .
(١٣٩) نفسه، ص١٣ .
(١٤٠) نفسه، ص٦٥ .
(١٤١) نفسه، ص١٥ .
(١٤٢) نفسه، ص١٦ .
(١٤٣) نفسه، ص١٥، ١٦ .
(١٤٤) نفسه، ص١٧ .
(١٤٥) نفسه، ص١٦ .
(١٤٦) الباقلاني، إعجاز القرآن، ص٢٦٢ـــ .
(١٤٧) نفسه، ص١٢٧ .
(١٤٨) نفسه، ص٦ .
(١٤٩) نفسه، ص٦٤ .
(١٥٠) نفسه، ص٢٩ .
(١٥١) نفسه، ص١٢٦ .
(١٥٢) نفسه، ص٢٦٢، ٢٧٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٣٠٠ .
(١٥٣) نفسه، ص٢٦٢، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٨١، ٢٨٢ .
(١٥٤) نفسه، ص٣٠، ٣١، ٣٦، ٣٩، ٤٢، ١٢٦ .
(١٥٥) نفسه، ص١٥٦ .
(١٥٦) نفسه، ص٢٦٢ـــ .
(١٥٧) نفسه، ص٦٦ .
(١٥٨) نفسه، ص٦٦ـــ .
(١٥٩) نفسه، ص٢٧٥ .
(١٦٠) نفسه، ص١١٢ .
(١٦١) ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، ص٥٦-، وانظر:١٩٤، ٢٠١ .
(١٦٢) نفسه، ص٥٨ .

(١٦٣) نفسه، ص٥٧ .
(١٦٤) نفسه، ص٥٥، ٥٦ .
(١٦٥) نفسه، ص٥٦ .
(١٦٦) نفسه، ص٦٠-، ص٨٥- .
(١٦٧) نفسه، ص٢٠٩ .
(١٦٨) نفسه، ص١٩٤، ٢٠٩ .
(١٦٩) نفسه، ص٢٢١، ٢٢٢ .
(١٧٠) نفسه، ص٢١٨ .
(١٧١) نفسه، ص٢٢٢.
(١٧٢) نفسه، ص٥٧ .
(١٧٣) نفسه، ص٢٢٢ .
(١٧٤) القاضي عبد الجبار، المغني، ج١٦، ص١٩٧ .
(١٧٥) نفسه، ص٣٥٧ .
(١٧٦) نفسه، ص١٩٩، ٢٠٠ .
(١٧٧) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٣٩٥ .
(١٧٨) القاضي عبد الجبار، المغني، ج١٦، ص١٩٩ .
(١٧٩) نفسه، ص١٩٩، وانظر:ص٢٠١ .
(١٨٠) نفسه، ص٢١٥ .
(١٨١) نفسه، ص١٩٥، ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٢٩... .
(١٨٢) نفسه، ص٢٢١، ٢٢٤، ٢٤٦، ٢٧٠ ... .
(١٨٣) نفسه، ص١٩٩ .
(١٨٤) القيرواني، الحسن بن رشيق، (٤٦٣هـ)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٣٤ ، ٢١٣/١.
(١٨٥) نفسه، ص٢٢٠/١ .
(١٨٦) نفسه، ص٢٢٥/١ .
(١٨٧) نفسه، ص٢٢٨/١ .
(١٨٨) نفسه، ص٢٣٢/١ .
(١٨٩) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٨، ٣٧، ٥٧، ٤٠٢، ٤٢٤، ٤٥٩، ٤٦٠، ٤٦٦، ٤٦٧ .
(١٩٠) نفسه، ص١٠٩، ١١٠، ٢٦٧ .
(١٩١) نفسه، ص٣٧، ينظر أيضاً:عبد القاهر الجرجاني، الرسالة الشافية في الإعجاز، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٦٨ ، ص١٥٧.
(١٩٢) عبد القاهر الجرجاني، الرسالة الشافية، ص١١٨ .
(١٩٣) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تعليق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ودار المدني، جدة، ١٩٩١ ، ص١٥٧.

(١٩٤) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص١٠٩، ١١٠، ٢٦٧ .
(١٩٥) نفسه، ص٣٩٩ .
(١٩٦) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص٩ .
(١٩٧) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٤٧٥ .
(١٩٨) نفسه، ص٤٧ .
(١٩٩) عبد القاهر الجرجاني، الرسالة الشافية، ص١٥٧ .
(٢٠٠) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٤٦ .
(٢٠١) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص٢٠ .
(٢٠٢) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٥٨ .
(٢٠٣) نفسه، ص٥٩ .
(٢٠٤) نفسه، ص١٩٨ .
(٢٠٥) نفسه، ص٢٥٨، وانظر ص٢٦٧ .
(٢٠٦) نفسه، ص٣٩٥ .
(٢٠٧) الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، مقدمة المحقق، ص٦٧ .
(٢٠٨) نفسه، ص٧٥- .
(٢٠٩) نفسه، ص١٤٧ .
(٢١٠) نفسه، ص٨٩ .
(٢١١) نفسه، ص٨٩، ٩٣-، ٩٩، ١٠٨ .
(٢١٢) ابن الأثير، المثل السائر، ٢٦/١ .
(٢١٣) نفسه، ٢٧/١ .
(٢١٤) نفسه، ٢٣/١-٢٦، ٦٩، ٧٤، ١١٩، ١٢٤، ٢٨٢، ٣١٩/٢، ٣٣٣، ٣٤٥، ٣٤٨ .
(٢١٥) نفسه، ١-٢٦، ٨٥، ٣٤٤/٢، ٣٧٧ .
(٢١٦) نفسه، ٩٢/٢، ٢١٥ .
(٢١٧) نفســـــه، ٢٦/١، ٣٩، ٥٧، ٦٦، ٨٥، ١٥٧، ١٦١، ١٦٣، ٢٣٣، ٣٤٢، ٣٤٦، ٣٩٢/٢، ٣٩٧ .
(٢١٨) نفسه، ٤٧/١، ١٦٤/٢ .
(٢١٩) نفسه، ٣٩٢/٢ .
(٢٢٠) نفسه، ٢١٣/١ .
(٢٢١) نفسه، ١٧٢/١ .
(٢٢٢) نفسه، ٨٠/١ .
(٢٢٣) نفسه، ٨٠/١ .
(٢٢٤) نفسه، ٨١/١-٨٣ .
(٢٢٥) نفسه، ٨١/١ .
(٢٢٦) نفسه، ٨١/١، وانظر ١٥٩/١ .
(٢٢٧) نفسه، ٨٢/١ .
(٢٢٨) نفسه، ١٥٠/١- .

(٢٢٩) نفسه، ١/٨٢ .
(٢٣٠) نفسه، ١/٨٤ .
(٢٣١) نفسه، ١/٨٤-٨٥ .
(٢٣٢) نفسه، ١/١٤٩- .
(٢٣٣) نفسه، ١/١٥٥ .
(٢٣٤) نفسه، ١/١٥٥.
(٢٣٥) نفسه، ١/١٥٧- .
(٢٣٦) السكاكي، المفتاح، ص٢٤٧ .
(٢٣٧) نفسه، ص٢٤٧، ٢٤٨ .
(٢٣٨) نفسه، ص٢٤٩ .
(٢٣٩) نفسه، ص٢٥٠.
(٢٤٠) نفسه، ص٢٥٦ .
(٢٤١) نفسه، ص٢٥٦ .
(٢٤٢) نفسه، ص٥٣٢ .
(٢٤٣) نفسه، ص٥٢٦، ٥٢٧ .
(٢٤٤) نفسه، ص٥٢٦ .
(٢٤٥) نفسه، ص نفسه، ص٥٢٦ .
(٢٤٦) العلوي، الطراز، ١/٨ .
(٢٤٧) نفسه، ١/١١ .
(٢٤٨) نفسه، ١/١١ .
(٢٤٩) نفسه، ١/١١ .
(٢٥٠) نفسه، ١/١٢، ١٣ .
(٢٥١) نفسه، ١/١٣ .
(٢٥٢) نفسه، ١/١٤ .
(٢٥٣) نفسه، ١/١٠٣ .
(٢٥٤) نفسه، ١/١٢٨، ١٢٩ .
(٢٥٥) نفسه، ١/١٣٠ .
(٢٥٦) نفسه، ١/١٣٢ .
(٢٥٧) نفسه، ١/١٣٠ .
(٢٥٨) نفسه، ١/١٣٢ .
(٢٥٩) نفسه، ١/١٣٣- .
(٢٦٠) نفسه، ١/١٣٧ .
(١٦١) القزويني، التلخيص، ص٤، والإيضاح، ص٧٧ .
(٢٦٢) القزويني، الإيضاح، ص٢٤٥ .
(٢٦٣) القزويني، التلخيص، ص٢٤، والإيضاح، ص٧٨- .
(٢٦٤) نفسه، ص٢٦، و نفسه، ص٨٠- .

(٢٦٥) نفسه، ص٣٢، و نفسه، ص٨٥ .
(٢٦٦) نفسه، ص٣٥، و نفسه، ص٨٦ .
(٢٦٧) نفسه، ص٣٤، و نفسه، ص٨٧ .
(٢٦٨) نفسه، ص٣٥، و نفسه، ص٨٧.
(٢٦٩) نفسه، ص٣٥، و نفسه، ص٨٧.
(٢٧٠) القزويني، الإيضاح، ص٨٧ .
(٢٧١) القزويني، التلخيص، ص٣٥ .
(٢٧٢) القزويني، الإيضاح، ص٨٩ .
(٢٧٣) القزويني، التلخيص، ص٣٦، والإيضاح، ص٨٩ .
(٢٧٤) نفسه، ص٣٧، و نفسه، ص٨٩ .
(٢٧٥) نفسه، ص٣٧، و نفسه، ص٩١ .
(٢٧٦) نفسه، ص٢٣٥، و نفسه، ص٣٤٣.
(٢٧٧) نفسه، ص٣٤٧، و نفسه، ص٤٥٥ .
(٢٧٨) القزويني، الإيضاح، ص٩٢ .
(٢٧٩) نفسه، ص٨٥، ٨٩ .
(٢٨٠) نفسه، ص٨٥ .
(٢٨١) القزويني، التلخيص، ص٢٢.
(٢٨٢) السعد التفتازاني، مسعود بن عمر، (٧٩١هـ)، الشرح المختصر، ضمن كتاب شروح التلخيص، جمع فرج الله زكي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٩٣٧ ، ٤٩/١.
(٢٨٣) نفسه، ٧٠/١ .
(٢٨٤) المغربي، ابن يعقوب، (١١١٠هـ)، مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، ضمن كتاب شروح التلخيص، جمع فرج الله زكي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر، ١٩٣٧ ، ٥٠/١.
(٢٨٥) السبكي، عروس الأفراح، ٥٠/١ .
(٢٨٦) نفسه، ٥٠/١ .
(٢٨٧) نفسه، ٥٠/١ .
(٢٨٨) شروح التلخيص، ٧٠/١ .
(٢٨٩) نفسه، ٧٣/١- .
(٢٩٠) السبكي، عروس الأفراح، ٧٥/١، وانظر، ١٤٣/١ .
(٢٩١) نفسه، ٧٥/١ .
(٢٩٢) شروح التلخيص/١/٧٥- .
(٢٩٣) نفسه، ٧٦/١- .
(٢٩٤) القزويني، التلخيص، ص٢٢ .
(٢٩٥) السبكي، عروس الأفراح، ٧٦/١ .
(٢٩٦) نفسه، ٧٦/١، ٧٧ .
(٢٩٧) القزويني، التلخيص، ص٣٢ .
(٢٩٨) السبكي، عروس الأفراح، ١٢١/١ .

[٢٩٩] نفسه، ١/١٢١ .
[٣٠٠] نفسه، ١/٧٥ .
[٣٠١] نفسه، ١/١٢١ .
[٣٠٢] نفسه، ١/١٢١، ١٢٢ .
[٣٠٣] نفسه، ١/١٢٣- .
[٣٠٤] المغربي، مواهب الفتاح، ١/١٢٣- .
[٣٠٥] نفسه، ١/١٢٥- .
[٣٠٦] السبكي، عروس الأفراح، ١/١٢٣ .
[٣٠٧] نفسه، ١/١٢٣-١٣٠ .
[٣٠٨] نفسه، ١/١٣٠ .
[٣٠٩] المغربي، مواهب الفتاح، ١/١٣١- .
[٣١٠] السبكي، عروس الأفراح، ١/١٣٤ .
[٣١١] نفسه، ١/١٣٤ .
[٣١٢] نفسه، ١/١٣٢-١٣٤ .
[٣١٣] المغربي، مواهب الفتاح، ١/١٣٥ .
[٣١٤] السبكي، عروس الأفراح، ١/١٣٥ .
[٣١٥] نفسه، ص١٣٦.ولم أجدّ النص الحرفي في كتاب قانون البلاغة، ولعلّ السبكي نقل الفكرة دون اللفظ .
ينظر: البغدادي، محمد بن حيدر، (٥١٧هـ)، قانون البلاغة، تحقيق محسن غياض، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٩ .
[٣١٦] السبكي، عروس الأفراح، ١/١٣٧- .
[٣١٧] نفسه، ١/١٣٨ .
[٣١٨] السكاكي، المفتاح، ص٥٢٦ .
[٣١٩] السعد، الشرح المختصر، ١/١٥٢ .
[٣٢٠] المغربي، مواهب الفتاح، ١/١٥٣ .
[٣٢١] السبكي، عروس الأفراح، ١/١٥٦ .
[٣٢٢] السعد، الشرح المختصر، ٣/٢٥٦.
[٣٢٣] شروح التلخيص، ٣/٢٥٦، وانظر ١/١٥٦ .
[٣٢٤] القزويني، التلخيص، ص٢٣٥، ٢٣٦ .
[٣٢٥] السبكي، عروس الأفراح، ٣/٢٥٩- .
[٣٢٦] نفسه، ٣/٢٥٩، وانظر ١/١٥٧ .
[٣٢٧] المغربي، مواهب الفتاح، ٤/٢٨٢ .
[٣٢٨] السبكي، عروس الأفراح، ٤/٢٨٣ .
[٣٢٩] نفسه، ٤/٢٨٣ .
[٣٣٠] نفسه، ١/١٥٧، ١٥٨ .
[٣٣١] نفسه، ١/١٥٩ .

(٣٣٢) نفسه، ١/١٥٩، وانظر ٣/٢٥٦ .
(٣٣٣) القزويني، التلخيص، ص٣٤٧ .
(٣٣٤) السبكي، عروس الأفراح، ٤/٢٨٣، ٢٨٤ .
(٣٣٥) نفسه، ٤س/٤٨٤ .